د. يوسف القرضاوى

من أجل صحوة راشدة

تجدد الدين.. وتنهض بالدنيا

دار الشروق

من أجل
صحوة راشدة

طبعة دار الشروق الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk. Com.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف (*)

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السموات والأرض، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد، وصلوات الله وسلامه على صفوة خلقه، وخاتم رسله، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فهذه بحوث ومقالات، كتبت في أوقات متباعدة، ونشرت في مجلات مختلفة(١).

ومما لازلت أذكره: أن بعض هذه المقالات نشرتها عقب خروجي من معتقل السجن الحربي في صيف سنة ١٩٥٦م. وذلك في مجلة (منبر الإسلام) التي كانت تصدرها مراقبة الشئون الدينية بوزارة الأوقاف المصرية.

كنت أوقع على هذه المقالات باسم (يوسف عبد الله) خشية أن يثير لقب (القرضاوي) اعتراض (المباحث) التي وقفت لي بالمرصاد في كل طريق، في ذلك الحين، وحرمت عليّ أي عمل حكومي في أي مجال يتصل بالجماهير، كما

(*) كتبت هذه المقدمة في طائرة الخليج المتجهة من الدوحة إلى الكويت في مساء الأربعاء جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ الموافق ٣/ ٢/ ١٩٨٨م.

(١) منها: ما كُتب ونشر منذ أكثر من ثلاثين عامًا.
ومنها: ما نشر في هذا العام (١٩٨٨م).
وبعضها نشر في القاهرة: في مجلات (منبر الإسلام)، و(نور الإسلام)، و(الأزهر).
وبعضها نشر في بيروت: في مجلات (المجتمع)، و(الشهاب).
وبعضها في قطر: في مجلات (الدوحة) و(الأمة) و (الحق).
وبعضها نشر في الهند: في مجلة (البعث الإسلامي) التي تصدر عن ندوة العلماء.

في مجال التدريس، ومجال الدعوة والإرشاد وهما المجالان المتاحان لي، واللائقان بتخصصي وتكويني.

وقد حدث أن تقدمت للتدريس في معاهد الأزهر، وكان اسمي أول اسم في قائمة المقبولين حيث كان مجموعي أكبر مجموع في المتقدمين من كليات الأزهر الثلاث: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية، ولكن حين عرضت الأسماء على المباحث حذف اسمي من بينها.

لهذا حرصت على ألا أوقع باسمي الصريح المعروف، حتى لا أنبه الأجهزة المتربصة.

ومن الطرائف التي تذكر هنا: أن كان في الشئون الدينية بالأوقاف موظف إداري اسمه: يوسف عبد الله، فلما نشر مقالي الأول بعنوان (أمنية عُمَرية) بتوقيع (يوسف عبد الله) ظن هذا الموظف أن أحد المشايخ كالشيخ الغزالي أو الشيخ سيد سابق، كتب المقال ووقعه باسمه، ليستفيد منه، ويصرف المكافأة المخصصة له، وقد سارع بالفعل لطلب المكافأة وأوشك أن يتم له ذلك، لولا أن زميلاً له كان يعرف السر، فأخبره: من هو كاتب المقال.

وهكذا كادت تضيع الجنيهات الخمسة، التي كانت في ذلك الوقت ثروة كبيرة بالنسبة لي!

لا أدري لماذا طافت بي هذه الخواطر، وأنا أكتب هذه السطور؟ ولكن لعل في سردها عظة وعبرة، وتذكرة لنفسي وللناس، وقد أمرنا الله أن نذكر بأساء الماضي، لنقارنها بنعماء الحاضر، فنذكر آلاء الله تعالى وفضله، ونشكره على ما أنعم وأولى.

ومن هنا ذكر الله سبحانه رسوله ﷺ والمؤمنين معه في المدينة بما كانوا عليه في مكة فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[١].

والمهم في هذه التقدمة: أن هذه الكلمات ـ وإن اختلفت أزمنتها وأمكنتها

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٦.

وظروف كتابتها ـ تنبع كلها من عين واحدة، هي عين الإسلام الشامل المتوازن، الإسلام القوي الذي لا يضعف، الآمل الذي لا ييأس، المقاوم الذي لا يلقي السلاح. فجرت هذه العين هموم المسلمين التي لا تزيدها الأيام إلا الامتداد طولاً وعرضًا وعمقًا!

كما أنها جميعًا ـ قديمها وحديثها ـ تتجه إلى مصب واحد، وتسعى إلى هدف واحد:

هو الإسهام في إيجاد صحوة إسلامية حقيقية أصيلة، تتميز بالرشد والنضج والاستنارة. صحوة عقول ذكية، وقلوب نقية، وعزائم فتية. صحوة تعرف غايتها، وتعرف طريقها. تعرف من لها، ومن عليها. من هو صديقها، ومن هو عدوها.

صحوة تعمل على تجديد الدين، وإنهاض الدنيا به. صحوة تصحح المفاهيم المغلوطة، وتقوم المسالك العوج، وتوقظ العقول النائمة، وتحرك الحياة الراكدة، وتنفخ الروح في الجثة الهامدة، فتعيد إليها الحياة والحركة والنماء.

وها نحن بحمد الله نرى من معالم هذه الصحوة اليوم، ما لم يكن واضحًا للكثيرين من قبل.

ونحمد الله أن مداد العلماء ودماء الشهداء، وكلمات الحداة، وجهود الدعاة، وجهاد المصلحين، لم تذهب سُدى، ولم تكن ـ كما ظن الظانون ـ صيحة في واد، أو نفخة في رماد، بل آتت أكلها في حينها بإذن ربها.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ (١).

أسأل الله الكريم ذا الفضل العظيم الذي جعل يوم هذه الصحوة خيراً من أمسها، أن يجعل غدها خيراً من يومها.. اللهم آمين.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢).

د. يوسف القرضاوي

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤، ٢٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

في تصحيح المفاهيم

تجديد الدين ... في ضوء السنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(١).

ذكره أبو داود أول كتاب الملاحم: باب ما يذكر في قرن المائة(٢).

سند الحديث:

قال: حدثنا سليمان بن داود المهري: أخبرنا ابن وهب: أخبرني سعيد بن أبي أيوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة، عن أبي هريرة - فيما أعلم - عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث . . » الحديث.

قال أبو داود: رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني، لم يَجُزْ به شراحيل. أي: أوقفه عليه.

قال المنذري في مختصر السنن: رقم (٤١٢٣):

وعبد الرحمن بن شريح الإسكندراني، ثقة، اتفق البخاري ومسلم على

---

(١) رواه أبو داود في سننه، برقم: (٤٢٧٠)، والحاكم في (مستدركه) في الفتن ٤/ ٥٢٢، والبيهقي في (معرفة السنن والآثار) (ص ٥٢)، والخطيب في تاريخ بغداد ٢/ ٦١، كما ذكره الألباني في سلسلة (الصحيحة) رقم (٥٩٩)، وعزاه أيضًا إلى أبي عمرو الداني في الفتن، وفي صحيح الجامع الصغير (١٨٧٤) ط٢. (المكتب الإسلامي)، والهروي في (ذم الكلام)، وفي تعليق الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي على «بذل المجهود في حل أبي داود» نقل عن مولانا عبد الحي: أن الحديث أخرجه أيضًا الحسن بن سفيان في مسنده والبزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية . . . وغيرهم.

(٢) قال في (بذل المجهود) ١٧/ ٢٠١: أي أن المائة سنة قرن، فيحدث فيه المحدثات فيبعث على رأسها المجدد.

الاحتجاج بحديثه، وقد عضله [1]. يعني: أسقط راويين من سنده: أبا علقمة، وأبا هريرة؛ فالحديث المعضل هو الذي سقط من إسناده راويان على التوالي.

وقول أبي داود هذا لا يعلل الحديث؛ لأن عبد الرحمن إذا كان قد عضله، فإن سعيد بن أبي أيوب قد وصله وأسنده، وهي زيادة من ثقة فتقبل، كما هو مقرر في أصول الحديث.

وسند الحديث صحيح، رجاله ثقات، رجال مسلم؛ ولذا صححه غير واحد، ورمز السيوطي لصحته في (الجامع الصغير)، وأقره عليه شارحه العلامة المناوي[2]، وذكر أن الحاكم صححه [3]، وقال: قال الزين العراقي وغيره: سنده صحيح، وذكره الشيخ الألباني في سلسلة أحاديثه الصحيحة رقم (٥٥٩)[4].

كلمة عن موضوع الحديث:

هذا الحديث الشريف يتكون من جملة خبرية واحدة، تتضمن نبأ من أنباء الغيب، أخبر به من لا ينطق عن الهوى، وهو لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ...﴾[5].

وقد رواه أبو داود في كتاب (الملاحم) من سننه، والملاحم جمع ملحمة، ويراد بها: المعارك التي تقع في المستقبل بين المسلمين وأعدائهم، مأخوذة من التحام الجيشين المتقابلين، مثل ما نبأ به ﷺ من قتال المسلمين للترك والروم واليهود وغيرهم.

---

(١) مختصر السنن للمنذري ٦/ ١٦٣ط. المكتبة الأثرية بلاهور - باكستان، مصورة عن طبعة السنة المحمدية بمصر - بتحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/ ٢٨٢.

(٣) ليس في المستدرك: أنه صححه، وإنما سكت عليه. قال الألباني: فلعله سقط ذلك من النسخة المطبوعة من المستدرك. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/ ١٥١، الحديث (٥٥٩)ط. المكتب الإسلامي - بيروت

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) سورة الجن: الآيتان: ٢٦، ٢٧.

وقد تحقق بعض ما أخبر به ﷺ، ولازال البعض في ضمير الغيب، ونحن نوقن أنه واقع لا محالة في حينه الذي قدره الله، فما كذب محمد ﷺ يومًا، ولا كُذِّب.

وموضوع الملاحم يذكر عادة مع موضوعين آخرين هما: الفتن، وأشراط الساعة، وقد تضم هذه كلها، وقد يفرد بعضها عن بعض. وكلها تتحدث عن المستقبل، وما يجري الله فيه من أحداث.

والحقيقة أن هذه الموضوعات: الفتن، والملاحم، وأشراط الساعة، من الأشياء التي يجب على أهل البصيرة من العلماء أن يوسعوها بحثًا، ولا يدعوها للمتعجلين الذين يفرون منها بإنكارها إنكارًا كليا، أو لآخرين يصدقون كل ما يروى فيها دون تمحيص، أو لغيرهم ممن يئولونها على غير وجهها.

هدف الحديث:

يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمة بأن جذوتها لن تخبو، وأن دينها لن يموت، وأن الله يقيض لها كل فترة زمنية - قرن من الزمان - من يجدد شبابها، ويحيي مواتها.

وليس المقصود برأس المائة؛ سنة مائة، أو مائة وواحد مثلاً، بل أواخر كل قرن، وأوائل القرن الذي يليه، فكل يطلق عليه (رأس)، بل نحن في الواقع لا نستطيع أن نجزم بأن رأس المائة من الهجرة النبوية، أو من الوفاة، أو من البعثة كما سنبين بعد.

المهم أن الله لا يدع هذه الأمة، دون أن يهيئ لها من يوقظها من سبات، ويجمعها من شتات.

ونحن في حاجة إلى تأكيد هذا المعنى، حتى نقاوم موجة اليأس التي علا مداها، وأنه لا فائدة ولا أمل، وأن الإسلام في إدبار، والكفر في إقبال، وأن علامات الساعة الصغرى قد ظهرت، وستظل هكذا حتى تظهر العلامات الكبرى، وتقوم الساعة على من لا يقول: «الله، الله». كما جاء في الصحيح[1].

---

(١) جاء في مسلم عن أنس: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله» حديث رقم (٢٣٤) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

ويؤكد قوم هذا المعنى بأحاديث يفهمونها على غير وجهها مثل حديث: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»(١).

ونسي هؤلاء أن غربة الإسلام، لا تعني ضعفه بإطلاق، وكذلك غربة المتمسكين به والداعين إليه، لا تعني ضعفهم أو هوانهم، بل تعني تميزهم، وعدم ذوبانهم في غيرهم، فهم كالشامة في الناس.

وفي بعض روايات هذا الحديث، وصف النبي ﷺ الغرباء بقوله: «الذين يصلحون ما أفسد الناس من سُنتي» (٢)، فهؤلاء الغرباء ليسوا يائسين ولا سلبيين في مجتمعاتهم، بل يصلحون ما أفسد الناس من سنن الإسلام، ويحيون ما مات من آدابه وأخلاقه.

وليس في الحديث ما يدل على أن هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة، فقد تكون غربة في بلد دون آخر، وفي قوم دون غيرهم، وفي زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم (٣)، ثم يتبدل الحال، فيصبح الضعيف قويًا، والمقهور منصوراً.

ويستدلون هنا كذلك بحديث أنس عند البخاري: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه» (٤)، ولا ينبغي أن يؤخذ هذا الحديث على ظاهره وإطلاقه وعمومه.

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة برقم (٢٣٢)، ورواه الترمذي من حديث ابن مسعود برقم (٢٦٣١) وقال: حسن صحيح غريب، وهو عند ابن ماجه برقم (٣٩٨٦)، ونسبه (الجامع الصغير) إلى ابن ماجه عن أنس، والطبراني عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس، ولم يخرجه البخاري، وذكر الترمذي في (العلل) أنه سأل عنه البخاري فقال: حديث حسن. الفيض ٢/ ٣٢٢.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٦٣٢) من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف الحزني، وهو ضعيف وإن كان الترمذي يحسن حديثه، بل يصححه أحيانًا. وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا «طوبى للغرباء! طوبى للغرباء!» فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «ناس صالحون في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم»؟ الحديث رقم (٧٠٧٢) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(٣) انظر. مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ١٩٦ بتحقيق محمد حامد الفقي.

(٤) الحديث رواه البخاري في (كتاب الفتن) عن الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج-يريد الحجاج بن يوسف الثقفي ـ فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ. الحديث برقم (٧٠٦٨) من البخاري مع (الفتح) ١٣/ ١٩، ٢٠. ط. الدار السلفية، بإشراف الشيخ عبد العزيز بن باز، وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، وأشرف على طبعه السيد محب الدين الخطيب.

فقد رأى بعض العلماء له تأويلاً حسنًا، ذكره الحافظ ابن حجر في شرحه وهو: أن الحديث مراد به خصوص من سمعوه من الصحابة، وإن فهم أنس رضي الله عنه منه العموم [1]. يعني: أن النبي ﷺ أراد من هذا الحديث أن يرشد هذه المجموعة التي سمعت من أصحابه، أن يهيئوا أنفسهم لتغير الزمان، بعد عهد النبوة، حتى لا يصدهم الواقع الذي يعيشون بعده، والتغيرات المذهلة التي سيشهدونها، ولا يدفعهم ذلك إلى زعزعة الثقة بدينهم ومنهجهم.

ولولا ذلك الفهم لتناقض الحديث مع الواقع، فقد كان زمن عمر بن عبد العزيز خيراً من زمن من قبله من بني أمية.

وكذلك زمن نور الدين محمود [2] الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي [3] ـ اللذين حرر الله على أيديهما أرض الإسلام من الصليبيين، وأحيا بهما السنة، وأمات البدعة ـ كان خيراً من أزمنة من قبلهما.

---

(١) الفتح ١٣/ ٢١ قال: واستدل ابن حبان في صحيحه بأن حديث أنس ليس على عمومه بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً. اهـ.

(٢) هو محمود بن زنكي (عماد الدين) الملقب بـ(الملك العادل): ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، وكانت سيرته في صلاحه وعدله وحرصه على إقامة حكم الله في الداخل، وجهاد عدو الله في الخارج أشبه بسيرة الخلفاء الراشدين. قاتل الصليبيين وكان موفقًا في حروبه، وبنى المدارس والجوامع، والخانات في الطريق، وهو أول من بنى داراً للحديث، وكان محبا للعلم، مكرمًا للعلماء، ينهض للقائهم ولا يرد لهم قولاً... عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة دون تعصب، كما سمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة، وسمع منه جماعة. ت ٥٦٩هـ.
انظر: الأعلام للزركلي ٨/ ٤٦، وكتاب الروضتين لأبي شامة، وابن الأثير ١١/ ١٥١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٢٧ ـ ٢٨٤. ط بيروت، وللدكتور حسين مؤنس: نور الدين محمود: سيرة مجاهد صادق. نشرته الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

(٣) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بـ(الملك الناصر) من أشهر ملوك الإسلام، وأحرصهم على إصلاح البلاد، والعدل بين العباد، قاهر الصليبيين الذي حرر الله على يديه (بيت المقدس) بعد بقائه في أيديهم أكثر من تسعين عامًا، ونصره عليهم في معركة (حطين) الشهيرة، حكم مصر والشام، وأسس الدولة الأيوبية، ولم يدخر لنفسه مالاً ولا عقاراً إلا ما بنى من مدارس ومستشفيات. ت ٥٨٩هـ.
انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٣٧٦، وابن الأثير ١٢/ ٣٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٢، وما بعدها، وكذلك أواخر جـ ١٢، وشذرات الذهب ٢/ ٢٩٨، والأعلام للزركلي ٩/ ٢٩١ ـ ٢٩٣.

وكذلك لو أخذ الحديث على ظاهره كما يفهمه كثيرون، لتناقض مع الأحاديث التي دلت على ظهور الإسلام، وانتشاره قبل قيام الساعة، وخصوصاً عند ظهور ذلك الخليفة، أو الأمير الصالح الذي يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت ظلمًا وجوراً، وهو الذي اشتهر باسم (المهدي) (١)، وعند نزول المسيح عيسى بن مريم ليحكم بالإسلام، ولا يقبل دينًا غيره (٢).

ولا أدري لماذا تشاع الأحاديث من هذا النوع، ويهال التراب على نوع آخر من الأحاديث التي تحمل الأمل والبشرى للأمة، مثل حديث أحمد والترمذي: «مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أو آخره» (٣).

وحديث أحمد وابن حبان والحاكم: «بشر هذه الأمة بالسناء والدين، والرفعة والنصر، والتمكين في الأرض..» (٤).

وحديث أحمد وابن حبان: «ليبلغن هذا الأمر (يعني هذا الدين) ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر» (٥).

أما ظهور بعض العلامات الصغرى للساعة، فلا يعني أن صفحة الإسلام قد طويت، وأن الساعة ستقوم غداً أو بعد غد، فإن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة

---

(١) وردت فيه جملة أحاديث في (السنن)، ولم يرد في الصحيحين شيء صريح فيه.

(٢) انظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح للعلامة أنور الكشميري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة.

(٣) رواه الترمذي عن أنس برقم (٢٨٧٣) وقال: حديث حسن غريب، وعزاه السيوطي في (الجامع الصغير) إلى أحمد أيضًا عن أنس، وإلى أحمد عن عمار بن ياسر، وإلى أبي يعلى عن علي، وإلى الطبراني عن عبد الله بن عمرو، وقال ابن حجر في (الفتح): هو حديث حسن، له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة. وقال المناوي: وصححه ابن حبان من حديث عمار. انظر: فيض القدير ٥/ ٥٠٧.

(٤) عزاه في (الجامع الصغير) إلى أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبيه. وذكر المناوي في الفيض ٣/ ٢٠١ أن الهيثمي قال عن سند أحمد: رجاله رجال الصحيح، وإن الحاكم صححه ووافقه الذهبي في موضع، ورده في آخر، وهذا صحيح، ولكنه باعتبار إسنادين مختلفين، فعلى ضوء الإسناد الذي ذكره الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١١ أقره الذهبي على تصحيحه، ولكنه تعقبه في ٤/ ٣١٨، وانظر: تعليقنا على الحديث رقم (١٥) من كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب) ط. دار الوفاء. وذكره المنذري في (الترغيب) وذكر تصحيح الحاكم له وأقره، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٥).

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١، ١٦٣٢) وذكره الألباني في الصحيحة برقم (٣).

الصغرى، كما جاء في الصحيح: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[1]، وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى.

المسلم مطالب بالعمل لدينه ودنياه دائمًا:

على أن المسلم مطالب بأن يعمل لدنياه منتجًا معطاء، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، ولا يتوانى في عمارة الأرض لحظة واحدة، وهذا ما علمناه من رسول الله ﷺ حين قال: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة - نخلة صغيرة - فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها»[2].

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، أو ستقوم للحظة؟ إنه لن يعيش حتى يجني ثمرة ما غرست يداه؟ وليس هناك من سيعيش بعده حتى يقول: غرس لنا من قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل من بعدنا! فالساعة تقوم على الجميع، الفكرة هنا هي تكريم العمل لذات العمل، ووجوب أن يبقى المؤمن عاملاً معطاء إلى اللحظة الأخيرة ما دام فيه قدرة على العطاء.

فإذا كان هذا مطلوبًا لدنيا المرء، فكيف لا يكون مطلوبًا لدينه؟ كيف يكون الدين أهون عند الله من الدنيا؟!

إن المؤمن مطالب أن يعمل لدينه ما استطاع، داعيًا إلى الخير آمرًا بالمعروف ناهيا عن المنكر، مجاهدًا في سبيل الله، مقاومًا للشر والفساد، متعاونًا مع إخوانه المؤمنين على البر والتقوى، فإن النصوص التي أمرت بهذا كله لم تنسخ، ولم تخصص بزمن، بل هي باقية محكمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس، ورواه أحمد والشيخان أيضًا عن سهل بن سعد. وهو معروف كذلك عن جابر وبريدة وغيرهما. قال الحافظ السيوطي: وهذا متواتر. الفيض ٣/ ٢٠٢، وانظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، لمحمد فؤاد عبد الباقي ط. عيسى الحلبي، حديث رقم (١٨٦٢، ١٨٦٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده، والبخاري في الأدب المفرد، والطيالسي، وعبد بن حميد، والبزار وغيرهم، وقال الهيثمي: رجاله ثقات أثبات. انظر: فيض القدير ٣/ ٣٠، ٣١، وذكره الألباني في الصحيحة رقم (٩)، وفي صحيح الجامع الصغير أيضًا (١٤٢٤).

وقفة مع الحديث:

ولابد لنا أن نبين في الحديث معنى المجدِّد، ومن يكون؟ وما الدين المجدَّد؟ ومن المجدِّد له؟ وما معنى التجديد؟ وما مداه؟ وجوانبه؟

من يقوم بالتجديد؟

أما من يقوم بالتجديد والإحياء، فذلك موقوف على بيان معنى «من» هنا.

فكلمة «من» في الحديث الشريف «من يجدد» قد فهمها الأكثرون على أنها للمفرد، ولذلك اعتبروا المجدد فرداً واحداً، من عباقرة الأمة وأفذاذها تبعثه العناية الإلهية، ليجدد ما درس، ويقوي ما ضعف، ويرتق ما فتق.

ومن هنا ذكروا عدداً من المجددين الأفراد، فمجدد المائة الأولى هو خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)، ومجدد المائة الثانية محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) واختلفوا في مجدد المائة الثالثة حيث كان على رأسها أكثر من علم.. فذكروا أبا الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ)، وأبا العباس بن سريج (ت ٣٠٦هـ) والنسائي صاحب السنن (ت ٣٠٣هـ)، وذكروا في الرابعة القاضي أبا بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) وأبا حامد الأسفراييني (ت ٤٠٦هـ)، وفي الخامسة أبا حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وفي السادسة الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، وقيل: الرافعي (٦٢٣هـ)، وفي السابعة ابن دقيق العيد (ت ٧٠٣هـ)، وفي الثامنة: الحافظ زين الدين العراقي (ت ٨٠٨هـ) أو سراج الدين البلقيني (ت ٨٠٥هـ).

وقد نظم الحافظ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) منظومة في ذلك ضمنها أسماء المجددين إلى زمنه، وطمح إلى أن يكون هو مجدد المائة التاسعة، كما ادعى الاجتهاد المطلق، وأنكر عليه من أنكر من معاصريه.

وقد نقلها العلامة المناوي في فيض القدير، وفيها قال:

الحمد لله العظيم المنه ... المانح الفضل لأهل السنه

ثم الصلاة والسلام نلتمسْ ... على نبي دينه لا يندرسْ

لقد أتى في خبر مشتهرِ ... رواه كل عالم معتبر

بأنه في رأس كل مائه — يبعث ربنا لدين الأمه
مَنّا عليها عالما يجددُ — دين الهدى لأنه مجتهدُ
فكان عند المائة الأولى عمرْ — خليفة العدل بإجماع وقر
والشافعي كان عند الثانيه — لما له من العلوم الساميه
وابن سريج ثالث الأئمه — والأشعري عدَّه من أمَّه
والباقلاني رابع أو سهل أو — الأسفراييني، خُلْف قد حكوا
والخامس الحبر هو الغزالي — وعده ما فيه من جدال
والسادس الفخر الإمام الرازي — والرافعي مثله يوازي
والسابع الراقي إلى المراقي — ابن دقيق العيد باتفاق
والثامن الحبر هو البلقيني — أو حافظ الأنام زين الدين
والشرط في ذلك أن تمضي المائة — وهو على حياته بين الفئه
يشار بالعلم إلى مقامه — وينصر السنة في كلامه
وأن يكون جامعا لكل فن — وأن يَعُمَّ علمُه أهل الزمن
وأن يكون في حديث قد روي — من أهل بيت المصطفى وقد قوي
وكونه فردا هو المشهور — قد نطق الحديث والجمهور
وهذه تاسعة المئين قد — أتت ولا يُخلَف ما الهادي وعد
وقد رجوت أنني المجدد — فيها ففضل الله ليس يجحد (١)

وإذا كان السيوطي قد رجح كون المجدد فرداً؛ لأنه المشهور عند الجمهور، فقد نقل المناوي، قول الحافظ الذهبي، «من» هنا للجمع لا للمفرد، فنقول مثلاً: على رأس الثلاثمائة: ابن سريج في الفقه، والأشعري في الأصول، والنسائي في

(١) فيض القدير ٢/ ٢٨٢.

الحديث، وعلى الستمائة مثلاً: الفخر الرازي في الكلام، والحافظ عبد الغني في الحديث، وهكذا[1].

وقال ابن الأثير في (جامع الأصول):

«قد تكلموا في تأويل هذا الحديث، وكل أشار إلى القائم الذي هو من مذهبه، وحملوا الحديث عليه، والأولى العموم، فإن «من» تقع على الواحد والجمع، ولا تختص أيضا بالفقهاء، فإن انتفاع الأمة يكون أيضا بأولي الأمر، وأصحاب الحديث، والقراء، والوعاظ، لكن المبعوث ينبغي كونه مشاراً إليه في كل من هذه الفنون.

ففي رأس الأولى من أولي الأمر: عمر بن عبد العزيز، ومن الفقهاء: محمد الباقر، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله، والحسن، وابن سيرين، وغيرهم من طبقتهم، ومن القراء: ابن كثير، ومن المحدثين: الزهري.

وفي رأس الثانية من أولي الأمر: المأمون، ومن الفقهاء الشافعي، واللؤلؤي من أصحاب أبي حنيفة، وأشهب من أصحاب مالك... ومن القراء: الحضرمي، ومن المحدثين: ابن معين، ومن الزهاد: الكرخي.

وفي الثالثة من أولي الأمر: المقتدر، ومن الفقهاء: ابن سريج الشافعي، والطحاوي الحنفي، والخلال الحنبلي، ومن المتكلمين: الأشعري، ومن المحدثين: النسائي.

وفي الرابعة من أولي الأمر: القادر، ومن الفقهاء: الأسفراييني الشافعي، والخوارزمي الحنفي، وعبد الوهاب المالكي، والحسين الحنبلي[2]، ومن المتكلمين الباقلاني، وابن فورك، ومن المحدثين: الحاكم، ومن الزهاد: النوري، وهكذا يقال في بقية القرون»[3].

---

(١) السابق ١/ ١١.

(٢) هو الحسين بن خلف الفراء.

(٣) جامع الأصول لابن الأثير ١١/ ٣٢٠ـ ٣٢٤، ويلاحظ أن ابن الأثير ذكر بعض أفراد اعتبرهم من المجددين، وهم لايرقون إلى هذا المستوى مثل أولي الأمر من العباسيين، فعليهم مآخذ كثيرة، والمقصود من نقل كلامه عدم حصر التجديد في واحد.

وذكر الحافظ في (الفتح) ما نبه عليه البعض وهو: أنه لايلزم أن يكون في رأس كل قرن واحد فقط، بل الأمر فيه كما ذكره النووي في حديث: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه، ومحدث، ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وتفرقهم في الأقطار، ويجوز تفرقهم في بلد، وأن يكونوا في بعض دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم، أولا فأولا، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا أتى أمر الله.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير، وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد: أنهم كانوا يحملون الحديث عليه (يعني الحديث الوارد في التجديد). وأما من بعده فالشافعي، وإن اتصف بالصفات الجميلة والفضائل الجمة، لكنه لم يكن القائم بشأن الجهاد والحكم بالعدل.

قال: «فعلى هذا كل من اتصف بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدد أم لا» (١) انتهى.

مناقشة وترجيح:

والذي أختاره هنا ما ذهب إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما: أن «من» في الحديث المذكور، تصلح للجمع كما تصلح للمفرد.

وذلك أن «من» في أصل وضعها صالحة لهذا وذاك، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾(٢).

---

(١) فيض القدير ١/ ١١، وانظر: فتح الباري ١٣/ ٢٩٥ط. الدار السلفية وشرح النووي على مسلم ٤/ ٥٨٣، ٥٨٤. ط. الشعب بالقاهرة.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٤، وغيرها من الآيات الدالة على ذلك كثير.

إذا عرفنا هذا، فقد يكون المجدد فرداً، يهيئه الله ليقوم بمهمة الإحياء والتجديد كعمر بن عبد العزيز، وقد قيل: فرد ذو همة، يحيي أمة! وقال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد!

وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة: فكرية، أو تربوية، أو جهادية، يتواصى أهلها بالحق والصبر، ويتعاونون على البر والتقوى.

وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة، كل في موقعه، مجال اهتمامه واختصاصه. هذا في مجال العلم والفكر، وذاك في مجال السلوك والتربية، وثالث في مجال خدمة المجتمع، ورابع في مجال الحكم والسياسة، وآخرون في مجال الجهاد والمقاومة، وكل على ثُغرة من ثغر الإسلام، اتحدت أهدافهم، ومبادئهم، وإن اختلفت مواقعهم وطرائقهم.

وهنا أحب أن أنبه على أمر ينبغي للعاملين للإسلام من الأفراد والجماعات أن يعوه وهو:

إن اختلاف مناهج العمل للإسلام، وتعدد الجماعات العاملة لتجديده، ليس ظاهرة مرضية، ولا أمرا مذموماً عند الله، ولا عند الذين آمنوا؛ بشرط أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض، بمعنى أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضاً، ويشد بعضها أزر بعض، وتجمعها القضايا الكبرى، والمواقف المصيرية، لتواجه العدو المشترك صفا واحداً كالبنيان المرصوص.

أما أن يحاول كل منهم إثبات نفسه ونفي غيره، ويجعل أكبر همه بناء ذاته على أنقاض العاملين الآخرين، فإنه بذلك يؤدي إلى ضعف القوى الإسلامية كلها، وتآكلها من داخلها. كما يفتح ثُغرة للعدو المشترك، ليضرب الجميع، وهو آمن مستريح!

ويكون معنى (البعث) في الحديث: تهيئة الأسباب المواتية، وإتاحة الظروف المناسبة، وخلق المناخ الملائم، لظهور حركة التجديد للدين، والإحياء للأمة، وفق سنن الله تعالى التي لا تتبدل.

وليس معنى (البعث) إذن إظهار مجدد بخارقة من الخوارق الكونية، يهبط من السماء بغتة، أو تنشق عنه الأرض فجأة، ليغير ما بالناس، وإن لم يغيروا هم ما بأنفسهم.

وهذا الذي فهمناه من الحديث، هو الموافق لما جاءت به الأحاديث الأخرى، التي ناطت نصرة الدين في الزمن بطائفة تقوم على الحق، لا بفرد واحد، كما في الحديث الصحيح المعروف: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». وقد ورد عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة.

بل هو الموافق لما في كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١).

وقد ورد: هذه الآية لكم. يعني المسلمين. وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها(٢). يشير إلى قوله تعالى في السورة: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(٣).

وهذا الذي جاء به الخبر الإلهي، جاء بمثله الأمر الإلهي في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤)، ويؤكده مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾(٥)، وقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٦)، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٧)، وقوله ﷺ: «يد الله مع الجماعة» (٨).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨١.
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره عن قتادة بلاغًا إلى النبيﷺ ٢/ ٢٦٩ط. الحلبي.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٩.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.
(٥) سورة المائدة: الآية ٢.
(٦) سورة العصر: الآية ٣.
(٧) سورة الصف: الآية ٤.
(٨) رواه الترمذي من حديث ابن عباس برقم (٢١٦٧)، وحديث ابن عمر برقم (٢١٦٨) واستغرب كليهما، لكن رواه الطبراني بسند رجاله ثقات، كما قال الهيثمي، وقال ابن حجر: له شواهد كثيرة منها موقوف صحيح؛ لذا رمز السيوطي لحسنه في جامعه الصغير. انظر: فيض القدير ٦/ ٤٥٩، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٠٦٥) الطبعة الثانية.

والحق أن الفرد مهما تكن مواهبه، ومهما يكن عطاؤه، فهو محدود الطاقة والقدرة، ما لم يكن معه أعوان يشدون أزره، ويقوون أمره؛ فالمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قوي بجماعته وأعوانه.

ولهذا قال موسى عليه السلام ـ وهو القوي الأمين ـ حين كلفه الله بالرسالة: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾[1]، وقال الله تعالى في جوابه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[2].

وهذا يدلنا على أن الفرد مهما قوي، يحتاج إلى معونة غيره، حتى يشتد عضده.

وأصرح من ذلك وأوضح قول الله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ..﴾[3].

فقد منَّ الله عليه بأنه أيده بنصره والمؤمنين المؤلفة قلوبهم على غاية واحدة وعقيدة واحدة، أي أيده بالجماعة المؤمنة المترابطة.

وإذا فهمنا الحديث هذا الفهم، لم نعد في حاجة إلى انتظار (مجدد) أو مهدي فرد، يهبط علينا من السماء في علبة مغلقة، دون أي جهد أو سعي منا.

ولم نعد في حاجة إلى أن يدعي واحد من الناس أنه مجدد القرن الأوحد، فيقبل منه قوم ويرفضه آخرون، كما فعل الجلال السيوطي رحمه الله، حين ادعى أنه مجدد المائة التاسعة، فأنكر عليه كثير من معاصريه.

ولم نعد في حاجة إلى أن يدعي واحد، أو فئة لزيد أو عمرو من الناس أنه مجدد المائة العاشرة أو الرابعة عشرة له، ولا نظير له، فيقبله من كان على مذهبه أو مشربه، ويوسعه الآخرون تهكما وسخرية.

---

(١) سورة طه: الآيات ٢٩ـ٣٥.
(٢) سورة القصص: الآية ٣٥.
(٣) سورة الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣.

ولم نعد في حاجة إلى أن ينتصب كل فريق لترشيح مجدد منه، فأهل الحديث يرشحون محدثًا، وعلماء الكلام يقدمون متكلما، ورجال الفقه لا يذكرون إلا فقيهًا، وكل جماعة يقدمون فقيها من مذهبهم، فالشافعية يقدمون شافعيا، والحنابلة يرشحون حنبليا، وهكذا نجد المهتمين بالسياسة يرشحون خليفة أو أميرًا، والمهتمين بالجهاد يرشحون قائدًا عسكريا.

إننا بهذا الفهم نشرك الأمة كلها في التجديد المنشود، فهي التي تفرز المجددين، وتصقلهم، وتحركهم، وتهيئ الظروف المناسبة لظهورهم وحركتهم، وهي التي تساعدهم على تحقيق آمالهم، وإزالة العقبات من طريقهم، وتمدهم بالزاد والوقود في رحلتهم الطويلة إلى ما ينشدون.. وهي التي تعطي كل فرد موقعه في قافلة التجديد؛ ليحرسه ويرعاه كما قيل: أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك.

وهنا يصبح سؤال كل مسلم:

ماذا يكون دوري في حركة التجديد؟ وما واجبي نحوه؟

بدل أن يكون كل همه وسؤاله: متى يظهر المجدد؟!

متى يقع التجديد؟

ولكن متى يقع التجديد؟

إن الحديث حدد للتجديد وقتًا هو «رأس كل مائة سنة». ورأس الشيء أعلاه، ورأس السنة أولها.

وقد تساءل الشراح هنا عن بداية المائة، فقال المناوي: يحتمل المولد النبوي، أو من البعثة، أو الهجرة، أو الوفاة، قال: ولو قيل بأقربية الثاني (أي البعثة) لم يبعد، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث [1] (أي الهجرة). اهـ.

وذلك أنهم في حديثهم عن المجددين اعتبروا التاريخ الهجري هو الأساس، وهو معقول؛ لأنه التاريخ الذي ألهم الله المسلمين منذ عهد عمر أن يؤرخوا به دون غيره، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة.

---

(١) فيض القدير ١/ ١٠.

ويلاحظ أنهم جعلوا العبرة بوفاة المجدد في رأس القرن، كما يوضح ذلك تاريخ وفيات الذين عينوهم للتجديد، فعمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)، والشافعي (ت ٢٠٤هـ)، وابن سريج (ت ٣٠٦هـ)، والباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، والغزالي (ت ٥٠٥هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، وابن دقيق العيد (ت ٧٠٣هـ)، والعراقي (ت ٨٠٨هـ).

ولم يذكروا إمامًا مثل ابن تيمية برغم حركته التجديدية الضخمة في الفكر الإسلامي بمختلف جوانبه؛ لأنه تأخرت وفاته عن رأس المائة (ت ٧٢٨هـ).

والحديث لم يقل: إن الله يتوفى المجدد على رأس القرن، بل يبعثه على رأس القرن، ومعناه: أن مهمته تبدأ في رأس القرن، وليست تنتهي عنده.

وقد رأيت العلامة المناوي نبه على هذا المعنى، فقال:

«وهنا تنبيه ينبغي التفطن له، وهو أن كل من تكلم على حديث: «إن الله يبعث. . .» إلخ. إنما يقرره بناء على أن المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسه، وأنت خبير بأن المتبادر من الحديث إنما هو: أن البعث ـ وهو الإرسال ـ يكون على رأس القرن، أي أوله. ومعنى إرسال العالم: تأهله للتصدي لنفع الأنام، وانتصابه لنشر الأحكام، وموته على رأس القرن أخذ لا بعث! فَتَدَبَّرْ بإنصاف.

قال: ثم رأيت الطيبي قال: المراد بالبعث من انقضت المائة، وهو حي عالم مشهور مشار إليه.

والكرماني قال: قد كان قبيل كل مائة أيضا من يصحح ويقوم بأمر الدين، وإنما المراد من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه.

بل ذكر المناوي: أنه قد يكون في أثناء المائة من هو كذلك، بل قد يكون أفضل من المبعوث على رأس القرن، وأن تخصيص رأس القرن، إنما هو لكونه مظنة انخرام علمائه غالبًا، وظهور البدع، ونجوم الدجالين»[1]. وهو كلام وجيه.

---

(١) فيض القدير ١/ ١٢، ١٣.

والذي أراه أن الحديث يفيد أنه لا يبزغ قرن، إلا ويبزغ معه فجر جديد، وأمل جديد، وبعث جديد، حتى تستقبل الأمة المسلمة القرن بقلوب يحدوها الرجاء في غد أفضل، وعزائم مصممة على عمل أمثل، ونيات صادقة في تغيير الواقع بما يوافق الواجب، وخصوصًا أن المفروض في الأمة أن تقف على رأس القرن مع نفسها وقفة محاسبة وتقويم، محاولة أن تستفيد من ماضيها، وتنهض بحاضرها، وترقي بمستقبلها مبتهلة إلى ربها أن يكون يومها خيرًا من أمسها، وغدها خيرًا من يومها.

ولم ينف الحديث وجود مجددين في أواسط القرن وأواخره، بل هذا هو الواقع الملحوظ لمن يقرأ تاريخ هذه الأمة، ويجدر من المجددين أمثال الأئمة: ابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي، وابن الوزير، وابن حجر، والدهلوي، والشوكاني، وغيرهم من الأعلام.

من المجدَّد له؟

أما المجدَّد له، كما بين الحديث، فهو (هذه الأمة)، وهي الجماعة المحمدية، كما قال المناوي، وأصل (الأمة) الجماعة، مفرد لفظًا، جمع معنى، وقد يختص بالجماعة الذين بعث فيهم نبي، وهم باعتبار بعثه فيهم، ودعائهم إلى الله، يسمون (أمة الدعوة)؛ فإن آمنوا كلاً أو بعضًا، سُمِّيَ المؤمنون (أمة الإجابة) وهو المراد هنا، بدليل إضافة الدين إليها في قوله: «دينها» (١).

فكلمة «لهذه الأمة» إشارة إلى أمة الإسلام، أمة الإجابة، على امتداد قرونها وأجيالها، كان النبي ﷺ يستحضرها أمامه، ويشير إليها بقوله: «هذه الأمة».

وهي الأمة المذكورة في القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٢)، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٣).

ولا يعرف القرآن ولا السنة أمة غير الأمة الإسلامية، وهي أمة واحدة كما أمر

---

(١) فيض القدير ١/ ١٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

الله تعالى، وإن اختلفت أجناسها وألوانها وأوطانها: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[1]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[2].

ولا يجوز أن نقول كما يقول بعض الناس: (الأمم الإسلامية)، فليس في الإسلام (أمم)، بل (أمة) واحدة، ولكن هناك (شعوب إسلامية) داخل هذه الأمة.

والتجديد المطلق الكامل هو الذي يغطي مساحة الأمة الإسلامية كلها، ويؤثر فيها جميعًا، كما أن التجديد الكامل هو الذي يشمل العلم والعمل معًا، وقد رأينا هذا في مثل تأثير عمر بن عبد العزيز والشافعي والغزالي ونحوهم، ممن أثروا في محيط الأمة المسلمة جمعاء، وإن كان تأثير كل منهم في جانب أو أكثر من جوانب الحياة الإسلامية.

ولكن التجديد قد يكون جزئيا، خاصًا بجانب من جوانب الحياة، أو بقطر من الأقطار، أو بفئة من الفئات، أو نحو ذلك، وقد يتسع لأكثر من جانب وأكثر من فئة، وأكثر من بلد.

ما الدينُ المجدَّد؟!

أما (المجدَّد) في الحديث فهو (الدين). ولكن ما المراد بـ(الدين) في الحديث؟

وكلمة (الدين) ومثلها كلمة (الإسلام) إذا أطلقت تعني أحد أمرين:

أولهما: المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه، من العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع؛ لينظم بها علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، وهو ما عبر عنه العلامة ابن خلدون بأنه: «وضع إلهي سائق للبشر باختيارهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم».

وهذا المعنى - بالنظر إلى أسسه وأصوله - ثابت لا يقبل التغيير ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجية.

والثاني: الحالة التي يكون عليها الإنسان في علاقته بالمعنى الأول فكرًا

---

(1) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(2) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

وشعوراً، وعملاً وخلقًا، وفي هذا المعنى يقال: فلان ضعيف الدين أو قويه، حسن الإسلام أو رديء الإسلام.

والدين هنا متغير متحرك، فهو يزيد وينقص، ويضعف ويقوى، ويصفو ويكدر، ويستقيم وينحرف، بحسب فهم الإنسان له، وإيمانه به، والتزامه بتعاليمه.

وهذا المعنى هو الذي يقبل التجديد، ولا غرو أن جاء الدين في الحديث الذي معنا مضافًا إلى الأمة، وليس مضافًا إلى الله «ليجدد لها دينها» فالتجديد ينصب على دين الأمة، وليس على دين الله تعالى.

معنى التجديد:

وبهذا نرى أنه لا معنى لإنكار بعض العلماء عبارة (التجديد) في الدين، وتوجسهم خيفة أن يستخدمها بعض المنحرفين فيما لا يقبله الإسلام، فلسنا أحرص على الدين ممن بعثه الله به، وقد نطق بهذه الكلمة وصح بها الحديث، فلم يعد يسع مسلمًا أن يتخوف من استعمالها، وإنما المهم هو تحديد مدلولها حتى لا يستخدمها كل فرد أو كل فريق بما يحلو له.

فما معنى التجديد هنا؟!

نقل العزيزي في شرحه للجامع الصغير عن العلقمي: أن معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما [(١)]، فجعل التجديد ينصب على (العمل).

وقال المناوي في معنى (يجدد): يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة [(٢)]، فجعل التجديد منصبًا على (العلم).

وفي مقام آخر قال: يجدد ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن، وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة [(٣)]. وهو يشمل العلم والعمل.

---

(١) السراج المنير للعزيزي ١/ ٤١١.
(٢) فيض القدير ٢/ ٢٨١، ٢٨٢.
(٣) فيض القدير ١/ ١٠.

والتجديد المطلق يشمل العلم والعمل جميعًا.

وأود أن أنبه هنا على معنى مهم في قضية التجديد، وهو: أن التجديد لشيء ما، هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وَهَى منه، وترميم ما يلي، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى.

فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء.

ولنأخذ بذلك مثلاً في الحسيات؛ إذا أردنا تجديد مبنى أثري عريق، فمعنى تجديده: الإبقاء على جوهره وطابعه ومعالمه، وكل ما يبقى على خصائصه وترميم كل ما أصابه من عوامل التعرية، وتحسين مداخله، وتسهيل الطريق إليه، والتعريف به.. إلخ، وليس من التجديد في شيء أن نهدمه، ونقيم عمارة ضخمة على أحدث طراز مكانه.

وكذلك الدين: لا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان.

وهذه العودة لا تخيف، كما يتوهم بعض الناس، إنها في الحقيقة العودة إلى التيسير لا إلى التعسير، إلى التبشير لا إلى التنفير، إلى الاهتمام باللباب لا الوقوف عند القشور.

إن الذي يقرأ فقه الصحابة والتابعين يجد أنهم أفقه الناس لروح الإسلام ومقاصده، ولم يكونوا حرفيين، ولا شكليين. كانوا ملتزمين كل الالتزام بشرع الله، ومع هذا كانوا يجتهدون في أحكام الوقائع بروح سمحة، تعلم الناس أن الله لم يشرع دينه إلا لمصلحة عباده، وأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وكان منهجهم كما عبر عنه الإمام علي رضي الله عنه ترجيح (النمط الأوسط) الذي يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي.

إن مفتاح التجديد للدين هو: الوعي والفهم، وبعبارة إسلامية صميمة هو: الفقه، ولا أعني بالفقه المعنى الاصطلاحي المعروف، وهو ما يتعلق بمعرفة الأحكام الفرعية من الوضوء والصلاة والرضاع والزواج والطلاق فقط، وإن كان

هذا مطلوبًا ومحمودًا، ولكن أعني بالفقه: مفهومه القرآني والنبوي وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[1]، وهو الذي نفاه الله عن المشركين وغيرهم من أعداء المسلمين حين وصفهم بأنهم ﴿قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[2]، وقال عن أهل جهنم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[4]، وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[5].

والفقه هنا كما يدل عليه القرآن والسنة فقهان: فقه في الكون، وفقه في الدين، فالأول يعني الفهم عن الله فيما خلق، والثاني يعني الفهم عن الله فيما شرع.

الفقه في الكون يراد به: الفقه لآيات الله في الأنفس والآفاق، ولسنته التي لا تتبدل في الكون والإنسان، كما يدل على ذلك سياق الآيات الكريمة.

والفقه في الدين هنا يعني المعرفة التي نحصل عليها بعد دراستنا المتفحصة للإسلام من ينابيعه الصافية، بحيث يفهم فهمًا سليمًا، خالصًا من الشوائب، بعيدًا عن غلو المتطرفين، وتقصير المضيعين، مسترشدين بهدى الجيل الأول الذين كانوا أفهم الناس لمقاصد الإسلام، وأحرصهم على التزامه والعمل به. غير غافلين عما تميز به الإسلام من الشمول والاعتدال والتيسير، مفرقين بين الكليات والجزئيات، وبين الأصول والفروع من الأحكام، مميزين بين ما شأنه الثبات والخلود، وما شأنه المرونة والتغير، مفرقين بين مراتب الأعمال ودرجاتها في ميزان الشرع، حسنات كانت أو سيئات، فليست الأركان كبقية الفرائض، وليست الفرائض كالواجبات، ولا الواجبات كالسنن الرواتب، ولا الرواتب كالمستحبات.

ومن ناحية أخرى: ليس الكفر كالمعاصي وإن كانت كبائر، وليست كبائر المحرمات كصغارها، وليست الصغائر المتفق عليها كالمشتبهات المختلف فيها،

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٨.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٢.
(٥) متفق عليه من حديث معاوية.

وليست المحرمات كالمكروهات، ولا المكروه تحريمًا كالمكروه تنزيهًا، ولا المكروه تنزيهًا كخلاف الأولى، ولكل عمل مرتبته، ولكل مرتبة حكمها.

ومن أعظم الخطل والخطر تذويب الفروق بين هذه المراتب والأعمال، واعتبار الجميع شيئًا واحدًا، فإن الجمع بين ما فرقه الله، كالتفريق بين ما جمعه الله، كلاهما لا يجوز.

ونحن في مطالع القرن الخامس عشر الهجري في حاجة إلى تجديد فكري ثقافي واسع عميق، تجديد يعيد للاجتهاد حياته ونشاطه من جديد، والاجتهاد بنوعيه: الترجيحي الانتقائي والإبداعي الإنشائي. اجتهاد يضع للمشكلات المعاصرة حلولها من داخل شريعة الإسلام، ويصف لأدواء مجتمعاتنا أدويتها الناجحة من صيدلية الإسلام نفسه، لا من مصنوعات الغرب العلماني أو الشرق الإلحادي.

وهذا يوجب على المجامع العلمية المعنية بهذا المجال أن تعين على ذلك، ولا تضيق صدراً بالآراء الاجتهادية، كما يجب على كليات الشريعة أن تجعل مناهجها وكتبها ودراساتها في الفقه وأصوله وتأريخه ـ وبخاصة فقه القرآن والسنة في ضوء المقارنة العلمية ـ قادرة على تكوين العقلية الفكرية المستقلة، المرشحة للاجتهاد في مجالاته الانتقائية والإنشائية، وأن تنمي قدرات النابهين من طلابها، وتقوي عزائمهم على المضي في هذا الطريق.

تجديد قادر على أن يعيد عرض الإسلام بلغة العصر، مخاطبًا كل قوم بلسانهم، واعيًا لخصائص العصر، وخصائص الإسلام، وخصائص الأقوام، مدركًا المفهوم الأوسع والأعمق لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(١).

فليس معنى الآية أن نكلم الإنجليز بالإنجليزية، والصينيين بالصينية فحسب، بل أن نعرف كيف ندخل إلى عقل الإنجليزي وقلبه، وكيف ندخل إلى عقل الصيني وقلبه، ولكل منهما مدخل قد يصلح له، ولا يصلح للآخر.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

وهذا يعني تطوير أجهزة الدعوة وأساليبها وقدرات رجالها، وفقًا لما يتطلبه العصر، ويوجبه الإسلام، ويحتمه ما يصنعه الآخرون.

والحديث إلى قوم وصلوا إلى سطح القمر، غير الحديث إلى من يعيشون في الأدغال؛ فلهؤلاء لسان، ولأولئك لسان، ولابد أن نعرف لسان كل قوم لنعقل عنهم، ونبين لهم.

تجديد يعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح، مستمد من فلسفة الإسلام الكلية، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والمجتمع والتاريخ، ومستفيد من كل المدارس القائمة ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها، دون أن يكون أسيرًا لفلسفة واحدة منها، أو لفلسفاتها جميعًا.

وهذا يعني: أن تتحرر جامعاتنا من ربقة التقليد للفكر الغربي بشقيه الليبرالي والماركسي، وأن ترجع إلى الجذور والأصول في تراثنا الحافل. تأخذ منه وتضيف إليه، وتعدل فيه، وتنشئ أجيالا مستقلة الفكر، تجمع بين الأصالة الإسلامية والحداثة العصرية.

وهذا واجب كل الجامعات في بلادنا العربية والإسلامية، وواجب الجامعات الإسلامية فيها على وجه الخصوص، مثل جامعة الأزهر، وجامعة الإمام محمد ابن سعود، والجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، ونحوها... وذلك بحكم تكوينها وانتمائها ونوعية القائمين عليها.

تجديد يتيح لأمة الإسلام التفوق في (فروض الكفايات) من العلوم الكونية والرياضية، وتطبيقاتها (التكنولوجية) في المجالات المدنية والعسكرية، ويجعل أمة (سورة الحديد) قادرة على تصنيع الحديد، وعلى استغلال ثرواتها المطمورة والمنشورة، بحيث لا تكون عالة على غيرها في القوت الذي يحييها، وفي السلاح الذي يحميها، وهذا يقتضي تطوير مناهج التعليم وأجهزته وغاياته وأساليبه، وفقًا لما يتطلبه العصر ويفرضه الإسلام، ويحتمه التطور.

وإذا كان أهل الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية يتنادون بوجوب تطوير التعليم عندهم بما يتناسب وطفرات العصر، ويرون أن الأمة على حافة الخطر، إذا لم تتدارك مسيرتها التعليمية... فماذا يكون حالنا نحن...؟

والتجديد للدين ليس فكريًا فحسب، كما هو مفهوم الكثيرين، عندما يذكرون التجديد ويتحدثون عنه، فلا يكاد يدور بخلدهم إلا تجديد الاجتهاد، وإيقاظ العقل المسلم لمواجهة تطورات الحياة.

ولا ريب في أن تجديد الفكر، وإحياء الاجتهاد، وتصحيح الفهم، يأتي في طليعة التجديد المنشود، فإن العلم يسبق العمل، والفكرة تسبق الحركة.

وحسبنا أن الله بدأ وحيه لرسول اللهﷺ بآية: ﴿اقرأ﴾ والقراءة هي مفتاح العلم والفكر والتأمل.

ولكن الإنسان ليس عقلاً فقط، بل هو عقل وقلب، وجسم وروح، فلابد للتجديد أن يشمل كيان الإنسان كله، وهو ما رعاه الإسلام أعظم الرعاية، فأعطى لكل منها حقه.

وقد اتفق العلماء الذين عنوا بتحديد أسماء المجددين في تاريخ الإسلام، على أن عمر بن عبد العزيز هو مجدد المائة الأولى (ت ١٠١هـ) على رغم قصر مدة خلافته، فلم تزد على ثلاثين شهراً.

وتجديد عمر لم يكن في الجانب الفكري، أو العلمي -كتجديد الشافعي في رأس المائة الثانية- بل كان تجديده في ميدان العمل والحكم، حيث أبطل تقاليد الجور، وأحيا سنن العدل، وأزال المظالم، ورد الحقوق إلى أهلها، ورفض مطالب الطامعين من أهله، وأشاع جو التقوى لله والخشية منه، والرغبة فيما عنده، ولهذا اعتبروه خامس الراشدين.

فعل ذلك كله بلا ادعاء ولا تظاهر ولا تفاخر؛ بل كان يناجي ربه راجيًا خائفًا، فيقول: اللهم إن عمر ليس أهلا أن ينال رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر!!

وقال له مرة أحد الناس بعد موقف من مواقفه المحمودة: جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً!!

فرد الحق لأهله، ووضع الأمر في نصابه، فالإسلام هو الذي صنع عمر وليس عمر الذي صنع الإسلام.

ونعني بالإيمان هنا: العقيدة الإسلامية وأساسها التوحيد، وعناصره ثلاثة أساسية: ألا نبتغي غير الله ربا، ولا نتخذ غير الله وليًا، ولا نبتغي غير الله حكمًا.

وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

وبعد التوحيد يأتي الشق الثاني من العقيدة، وهو الإيمان بالرسالة: «وأن محمداً رسول الله» ليس إلهًا ولا ابن إله، ولا ثلث إله، ولا محلاً حل فيه الإله؛ إنما هو عبد الله ورسوله، أنزل الله عليه كتابه، وبلغ ما أوحي إليه من ربه، لم يخن ولم يكتم، ولم ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١).

ومن أركان هذه العقيدة التي بلغها محمد عن ربه: الإيمان بالآخرة والجزاء، وأن الموت ليس نهاية المطاف، وأن وراء هذه الحياة الفانية حياة أخرى باقية، تُوفَّى فيها كل نفس ما كسبت، وتُجزي بما عملت: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٢).

اهمية الإيمان في حياتنا:

والإيمان في حياتنا نحن المسلمين ليس شيئًا على هامش الحياة. إنه جوهر وجودنا، وسر بقائنا، ولب رسالتنا... وبدونه لا معنى لحياتنا ولا مبرر لوجودنا..

وإذا كان لكل شخصية مفتاح، تستطيع إذا عرفته واستخدمته أن تعرف به مكنوناتها، وتفجر به مخزون طاقاتها؛ فإن مفتاح شخصية الإنسان في أمتنا هو الإيمان.

وكما أنك بلمسة المفتاح أو زر خاص للسيارة في البر، أو الباخرة في البحر، أو الطائرة في الجو... تستطيع أن تحركها وتدفع بها إلى الأمام، وتقطع بها المسافات. فكذلك نستطيع بعامل الإيمان أن نحرك كوامن هذه الأمة، ونصنع منها وبها العجائب وروائع البطولات، التي تُحكى كالأساطير.

---

(١) سورة النجم: الآية ٤.

(١) سورة الزلزلة: الآيتان: ٧، ٨.

لقد عزف عازفون على نغمات شتى لتحريك هذه الأمة، فما تحركت ولا استجابت.

عزفوا على نغمة القومية، وعلى نغمة الاشتراكية، وعلى نغمة الديمقراطية، فما صنعوا شيئًا غير النكسات والوكسات!

ولكن حين تقود هذه الأمة بالمصحف ترفعه، أو حين تصدع بصيحة (الله أكبر) وحينما تنادي: يا ريح الجنة هبي؛ ستجد الجماهير معك ووراءك بالملايين مستعدة للموت في سبيل الله.

هذا الإيمان المرصود في فطرة الأمة، المذخور في كيانها المعنوي، أشبه ببذرة طيبة في أرض طيبة، يجب علينا أن نرعاها وننميها ونتعهدها ونغذيها من ناحية.. وأن نحميها ونحافظ عليها من المواد السامة، والحشرات الضارة، حتى تنمو وتزهر وتثمر وتؤتي أكلها بإذن ربها.

حاجتنا إلى تربية إيمانية:

ولهذا كنا في حاجة إلى تربية إيمانية سليمة، تزرع في القلوب المعاني الربانية الأصيلة: الخشية من الله، والرجاء فيه، والأنس به، والحب له، والرضا عنه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، لأمره، والتسليم لحكمه، وحكم رسوله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١)، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢).

ومن عناصر هذه التربية: استحضار معاني الآخرة وما يتعلق بها: الموت، القبر، البعث، الحشر، الموقف، الحساب، الصحف، الميزان، الصراط، الجنة، النار.

وبعبارة أخرى: نحن في حاجة إلى لون من الصوفية الربانية الإيجابية المعتدلة،

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.
(٢) سورة النور: الآية ٥١.

التي عبر عنها بعضهم بأنها: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخلق، وإليها يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (١).

وهذا هو روح الدين الحق: التقوى لله، والإحساس للناس؛ فالتصوف الحقيقي تقوى وأخلاق، قبل كل شيء.

يقول ابن القيم: الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدين، وكذلك التقوى.

وينقل ابن القيم في (مدارج السالكين) عن بعض متقدمي الصوفية في تعريف التصوف قوله: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف (٢).

فهذا هو التصوف الذي نريد: تصوف التربية والأخلاق القرآنية والنبوية، التصوف الذي يغذي الإيمان، ويرقق القلوب، ويحرك الدوافع، ويشحذ الإرادة، ويهذب النفس، ويقوم السلوك في ضوء الكتاب والسنة، وهدى السلف الصالح، فهو الذي نحرص عليه، وندعو إليه، وهو الذي يقوم بمهمة (التزكية) التي أشار إليها القرآن في معالم الرسالة المحمدية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (٣)، وهو (مقام الإحسان) الذي جاء في حديث جبريل المشهور، وعرفه النبيﷺ بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٤).

أما إذا كان التصوف سلبية كالتي عبر عنها بعضهم بقوله: دع الخلق للخالق، واترك الملك للمالك! يريد تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مرفوض، ومثل ذلك قولهم: أقام العباد فيما أراد! فهو كلام حق يراد به باطل!

وإذا كان التصوف إلغاء لشخصية المريد أمام شيخه، كما قالوا، من قال

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٨.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٠٧.
(٣) سورة الجمعة: الآية ٢.
(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٨/ ١).

لشيخه: لمَ؟ لم يفلح! وقالوا: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل! فهو كذلكَ مرفوض.

وإذا كان التصوف تفرقة بين الحقيقة والشريعة، كالذين قالوا: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم! فلسنا منه في شيء.

وإذا كان التصوف كهانة وتجارة بالدين لدى العوام، الذين يقادون بالأساطير وتصنع لهم التمائم والأحجبة والتعاويذ، فهو باطل نبرأ منه.

وبالجملة: إذا كان التصوف مباءة للخرافات في الفكر، والشركيات في العقيدة، والمبتدعات في العبادة، والضعف في الأخلاق، والسلبيات في السلوك، والإهمال للحياة، فنحن أول من يحاربه.

فإنما يتجدد الدين حقا، بالدعوة إلى (الإسلام الأول): الإسلام الذي جاء به القرآن الكريم وشرحته السنة المطهرة، وفهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان، قبل أن يخلط بشوائب الملل والنحل، وفلسفات الأمم في الشرق والغرب، ندعو إليه خالصًا بلا شركة، نقيا بلا شوائب، شاملاً بلا تجزئة، متوازنًا بلا غلو ولا تفريط، صراطًا مستقيمًا بلا ميل ولا انحراف إلى اليمين أو الشمال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) سورة الأنعام. الآية ١٥٣.

الاجتهاد والتجديد

بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة

حول قضيتي الاجتهاد والتجديد كان هذا الحوار الذي أجرته مجلة (الأمة) القطرية مع المؤلف:

* الاجتهاد من الدين وهو أصل من أصوله التي تثبت حيوية الإسلام وقدرته على إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات الحياة المتجددة، فما هي المراحل التاريخية لحركة الاجتهاد، وهل أغلق بابه. كما قال بعضهم. في عصور معينة، ومن يتحمل مسئولية هذا الأمر؟ هل هي الدولة العثمانية كما قيل؟

- بدأ الاجتهاد منذ عهد النبي ﷺ، كما ظهر ذلك في قصة (صلاة العصر في بني قريظة) وفي حديث معاذ حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وسأله: «بماذا تقضي إن عرض لك قضاء؟» فقال: بكتاب الله. فقال: «فإن لم تجد؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد برأيي ولا آلو.. فأقره وأثنى عليه. وهو حديث مشهور جَوَّدَ إسناده عدد من الأئمة مثل ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير وغيرهم.. وقد اجتهد عدد من الصحابة في عدد من القضايا في غيبتهم عن النبي ﷺ، وبلغه ذلك، فمنهم من أقره على اجتهاده، ومنهم من صحح خطأه.

بعد عهد النبي ﷺ اجتهد الصحابة رضي الله عنهم، وواجهوا مشكلات الحياة المتجددة في مجتمعات الحضارات العريقة التي ورثوها بحلول إسلامية اقتبسوها من نصوص الإسلام أو من هديه العام، ووجدوا فيه لكل عقدة حلاً، ولكل داء دواء.

واجتهاد الصحابة في وقائع الحياة وفقههم لدين الله في علاجها، يمثل بحق الفقه الأصيل للإسلام، الذي يتسم بالواقعية، والتيسير، ومراعاة الشريعة لمصالح العباد، دون تجاوز أو افتئات على النصوص.

والناظر في فقه الخلفاء الراشدين، أو في فقه ابن مسعود وابن عباس وعائشة وغيرهم، رضوان الله عليهم، يجد ذلك واضحًا للعيان، ويوقن أن الصحابة هم أفقه الأجيال لروح الإسلام.

ومن الأمثلة على ذلك: موقف عمر ومن معه من فقهاء الصحابة، مثل: علي ومعاذ، حين أبى قسمة أرض العراق على الفاتحين باعتبارها غنيمة لهم أربعة أخماسها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ [1]، ورأى أن توقف الأرض لمصلحة الأجيال الإسلامية، وقال لمن عارضه: أتريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء؟!

وقال له علي ومعاذ: انظر أمرًا يسع أول الناس وآخرهم!

وقرر بذلك وجوب تكافل الأمة في جميع أجيالها، إلى جوار تكافلها في جميع أقطارها.

ومثل ذلك موقف عثمان رضي الله عنه من ضالة الإبل، فقد جاء في الحديث الأمر بتركها، وقال لمن سأله عنها: «مالك ومالها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يأتي ربّها»، وهكذا كانت تترك ضوال الإبل في عهد أبي بكر وعمر مرسلة تتناتج، لا يمسها أحد، حتى يجدها صاحبها، فلما كان عهد عثمان، وجد الناس قد تغيروا، وامتدت الأيدي إلي ضوال الإبل، فلم يعد بعضها يصل إلى أصحابها، فرأى المصلحة قد تعينت في التقاطها، فعين راعيًا يجمعها ويعرّفها، فإن لم يجد صاحبها باعها وحفظ الثمن له حتى يجيء.

وفي عهد علي رضي الله عنه رأى تضمين الصناع إذا ضاع ما في أيديهم من متاع الناس، مع أن يدهم في الأصل يد أمانة، ولكن عليا قال: لا يُصلح الناس إلا ذاك.. لما رأى من تغير أحوال الناس.

وهكذا كان فقه الصحابة في سعة أفقه وواقعيته وتيسيره، مع التزامه بالأصول ولا ريب.

وقد سار في هذا الاتجاه تلاميذ الصحابة من التابعين الذين كونوا مدارس فقهية، في كل الأمصار تعلم وتفتي في النوازل، وتواجه كل حادث بحديث، ومن هذه المدارس أو الجامعات التي نشأت تحت سقوف الجوامع، برز مشاهير الأئمة

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

أصحاب المذاهب المتبوعة مثل: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والثوري، والأوزاعي، والطبري، وداود الظاهري.

وقد كان المجتهدون في القرون الأولى أكثر من أن يحصروا.. قد تنوعت مشاربهم ومداركهم في استنباط الأحكام، ولكنهم اتفقوا على أن المصدر الأساسي لأحكام الشريعة هو الكتاب والسنة؛ فالكتاب هو الأصل، والسنة هي الشارحة والمبينة، ويأتي بعد ذلك المصادر التبعية الأخرى، مثل: الاستحسان والاستصلاح وسد الذرائع، ورعاية العرف وشرع من قبلنا، وغيرها مما اختلف فيه الفقهاء، ما بين مثبت وناف، وموسع ومضيق...

المهم أن الفقه نما واستبحر، وكثرت مسائله الواقعة والمتوقعة أو المفترضة ودُوِّنت كتبه وقُعِّدت قواعده، وضبطت طرائق استنباطه بواسطة (علم الأصول) الذي ابتكره المسلمون، ولا يوجد عند أمة مثله، ويعد من مفاخر التراث الإسلامي.

وقد ظل الفقه الإسلامي أساس القضاء والفتوى في المجتمعات الإسلامية كلها، حتى دخل الاستعمار بلاد المسلمين، وعزل الشريعة عن التقنين والقضاء، إلا في دائرة ضيقة هي ما سموه: (الأحوال الشخصية).

وليس صحيحًا ما يقال: إن الإسلام قد عُطل بعد عصر الخلفاء الراشدين، فإن الذي لا شك فيه أن المسلمين طوال اثني عشر قرنًا، لم يكن لهم دستور ولا قانون يتحاكمون إليه غير الشريعة الإسلامية، برغم ما حدث من سوء الفهم، أو سوء التطبيق لأحكامها السمحة.

إغلاق باب الاجتهاد:

أما عن إغلاق باب الاجتهاد فنقول:

أصبحت الدولة العثمانية مشجبًا يعلق عليه الكثيرون كل الأخطاء والعثرات في شتى المجالات.. فالواقع أن سيطرة التقليد والتعصب المذهبي وذبول شجرة الاجتهاد المطلق، أمور سبقت الدولة العثمانية، واستشرت في أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوتة، وإن لم يخل عصر من العصور من مجتهدين، حتى وجدنا الإمام السيوطي (ت ٩١١هـ) يعلن أنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ويرجو لنفسه أن يكون مجدد المائة التاسعة، كما هو المشهور في فهم الحديث الوارد في

(التجديد)، ويؤلف كتابه: (الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض).

وفي القرن الثاني عشر نجد المجدد الكبير حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم: شاه ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ) صاحب (حجة الله البالغة) وغيره من الكتب الأصيلة.. وفي القرن الثالث عشر يظهر في اليمن الإمام المجتهد المطلق محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) والذي تجلى اجتهاده في الفروع والأصول في كتبه (نيل الأوطار)، و(السيل الجرار)، و(الدراري المضيئة)، وشرحه (الدرر البهية)، و(إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول).

على أنه من الإنصاف للواقع وللتاريخ أن نقول: إن الدولة العثمانية اهتمت بالجهاد، أكثر من اهتمامها بالاجتهاد، مع أن القيادة الإسلامية تحتاج إلى كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، والجهاد لحمايته والذود عنه..

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لابد للدين من كتاب هاد، وحديد ناصر..» مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (١).

وكان اهتمام الدولة العثمانية بالحديد أكثر، أي: بالجانب العسكري أكثر من الجانب الفكري، حتى كانت الصدمة المذهلة بمواجهة نهضة الغرب الحديثة.

* يرى بعضهم أن حركة الاجتهاد في العصر الحديث قد بدأها (جمال الدين الأفغاني)، إلا أن تلامذته من بعده عادوا تدريجيًا إلى الاقتصار على النص، فأصبحوا أقرب إلى التقليد، وبخاصة محمد رشيد رضا، فهل يمكن وضع هذه الجهود في إطارها المناسب من حركة الاجتهاد؟

ـ هذه المقولة تدل على أن قائلها لم يحط علمًا بمدلول الاجتهاد ومجاله وشروطه.. ولو أحاط بذلك علمًا لعرف أن المسيرة كانت تصاعدية، ولم تنتكس كما زعموا، بل بدأت بالعموميات والمجملات ثم أخذت

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.

تتخصص، وبدأت رجراجة ثم شرعت تنضبط، فالشيخ محمد عبده كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأفغاني بحكم ثقافته الأزهرية المتعمقة. . والسيد محمد رشيد رضا كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخة الأستاذ الإمام، بما له من سعة اطلاع على كتب السنة والآثار، وإنتاج المدرسة السلفية، التي يمثلها الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهو الذي شن حملاته القوية من مجلته العتيدة (المنار) على الجمود والتقليد، وكتب المقالات الإصلاحية، والفتاوى العلمية التجديدية، خلال ثلث قرن من الزمان أو يزيد، وذاعت اجتهادات الشيخ رشيد، وفتاواه التجديدية في العالم الإسلامي كله، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه على قلّتها. . أما اجتهادات السيد جمال الدين فلا نكاد نعرف له اجتهاداً معينًا، وقد كانت شخصيته شخصية الزعيم (الثائر) الموقظ للعقول، المحرك للمشاعر، المثير للهمم والعزائم، لا شخصية الفقيه المنضبط بأصول وقواعد، وكلّ ميسر لما خُلق له.

وقد أخذَ على الشيخ محمد عبده بعض آرائه في تأويل القرآن، كقوله في قصة آدم، وكلاَمه عن الطير الأبابيل، ونحو ذلك، وعذره أن الحضارة الغربية كانت في أوجها، وكان الانبهار بها على أشده؛ لذا غلبت عليه النزعة العقلية، ومحاولة إخضاع النص حتى يوافق المفاهيم الجديدة، وتقريب تعاليم الدين من المثقفين بالثقافة الغربية، ولو بالتكلف.

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما، وتقدير فكره وعمله، أن يضعه في إطاره التاريخي الخاص، لا يعدو به زمانه ومكانه إلى زماننا نحن ومكاننا، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحًا مسلمًا، لم يكن كذلك في زمنه، فرحم الله امرءاً أنصف من نفسه، وأعطى كل عامل ما يستحقه، وأقام الشهادة لله. . .

* الاجتهاد الشرعي فرض كفاية حينًا، وفرض عين حينًا آخر، وله مدلوله ومجاله وشروطه. . هل يمكن تحديد هذه القضايا حتى لا تختلط الأمور. . ويدخل باب الاجتهاد من ليس أهلا له؟

- الاجتهاد هو: بذل غاية الجهد، واستفراغ غاية الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بطريق النظر وإعمال الفكر، وهو فرض كفاية على الأمة في مجموعها، تأثم إذا لم يتوافر لها عدد من أبنائها يسد حاجتها فيه، وهو

فرض عين على من أنس في نفسه الكفاية له، والقدرة عليه، إذا لم يجد في المسلمين من يسد مسده.

والاجتهاد يعمل في منطقتين:

*** إحداهما:**

منطقة ما لا نص فيه، مما تركه الشارع لنا قصداً منه، رحمة بنا غير نسيان.. ليملأ المجتهدون هذا الفراغ بما يحقق مقصد الشارع، وفق مسالك الاجتهاد التي يتبعها المجتهدون من القياس أو المصلحة المرسلة أو الاستحسان أو استصحاب الحال ـ أو غير ذلك.. ومن الملاحظ أن بعض المجالات كثرت فيها النصوص إلى حد التفصيل أحيانًا، مثل: العبادات وشئون الأسرة؛ لأنها مما لا يكاد يتغير بتغير الزمان والمكان، والحاجة ماسة فيه إلى نصوص ضابطة لمنع التنازع ما أمكن ذلك.. وإلى جانب ذلك توجد مجالات تقل فيها النصوص إلى حد كبير، أو تأتي عامة مجملة، لتدع للناس حرية الحركة في الاجتهاد لأنفسهم ـ في ضوء الأصول الكلية ـ وفق مصالح مجتمعهم، وظروف عصرهم، دون أن يجدوا من النصوص المفصلة ما يقيدهم، أو يعوق مسيرتهم، كما في شئون الشورى ونظام الحكم وقوانين الإجراءات والمرافعات وغيرها..

وثانيتهما:

منطقة النصوص الظنية، سواء أكانت ظنية الثبوت ـ ومعظم الأحاديث النبوية كذلك ـ أم ظنية الدلالة، ومعظم نصوص القرآن والسنة كذلك.. فوجود النص لا يمنع الاجتهاد كما يتوهم واهم، بل تسعة أعشار النصوص أو أكثر قابل للاجتهاد وتعدد وجهات النظر، حتى القرآن الكريم ذاته يحتمل تعدد الأفهام في الاستنباط منه، ولو أخذت آية مثل (آية الطهارة) في سورة المائدة، وقرأت ما نقل في استنباط الأحكام منها، لرأيت بوضوح صدق ما أقول.

وبجانب هاتين المنطقتين المفتوحتين للاجتهاد، توجد منطقة في الشريعة مغلقة بإحكام، لا يدخلها الاجتهاد، ولا يجد حاجة لدخولها: إنها منطقة القطعيات في الشريعة، مثل وجوب الفرائض الأصلية، كالصلاة والزكاة والصيام، وتحريم المحرمات اليقينية، كالزنى، وشرب الخمر، والربا، وأمهات الأحكام

القطعية، كأحاديث المواريث المنصوص عليها بصريح القرآن، وأحكام الحدود والقصاص، وعدد المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص القطعية في ثبوتها، القطعية في دلالاتها.

هذا النوع من الأحكام ـ التي لا يدخلها الاجتهاد ـ هو الذي يجسد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة، فلا يجوز أن تدخل معترك الاجتهاد، ليبحث باحث:

هل يجوز السماح بالخمر من أجل السياح؟

أو نعطل الصيام من أجل زيادة الإنتاج؟

أو نجمد الحج توفيرًا للعملة الصعبة؟

أو نعلق الزكاة اكتفاء بالضرائب الوضعية؟

أو نعطل الحدود والقصاص إشفاقًا على المجرمين؟ كأننا أرحم من الله بعباده! ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ...﴾ (١).

وهذا هو الذي يجب الاحتراس منه:

أن نجتهد فيما لا يجوز فيه، أو أن يلج باب الاجتهاد من ليس أهلاً له، ولا تتحقق فيه شروطه، وهذا هو الذي دعا بعض العلماء قديمًا أن ينادوا بإغلاق باب الاجتهاد، ليسدوا الطريق على الأدعياء والمتطفلين.. على أن باب الاجتهاد سيظل مفتوحًا، ولا يملك أحد إغلاقه بعد أن فتحه رسول الله ﷺ... ولا يسع فردًا أو مجموعة من العلماء أن يقولوا في واقعة تعرض عليهم: ليس لنا حق الاجتهاد فيها؛ لأن الأقدمين لم يقولوا شيئًا في شأنها؛ إذ الشريعة لابد أن تحيط بكل أفعال المكلفين، وأن يكون لها حكم في كل واقعة، وهذا ما لا يختلف فيه اثنان.

* لابد من توافر شروط محددة فيمن يتصدى للاجتهاد الشرعي؛ فما هي هذه الشروط؟ وهل تنسحب على المجتهدين عمومًا، أم أن هناك فرقًا بين من يتصدى للاجتهاد المطلق، ومن يتصدى للاجتهاد الجزئي؟

- ليس في الإسلام طبقة خاصة تحتكر الاجتهاد أو تتوارثه، إذ ليس فيه كهنوت ولا (إكليروس)، ولكن هناك عالمًا متخصصًا يملك أدوات الاجتهاد وتتحقق فيه شروطه، فهو الذي يجتهد فيما يعرض عليه من وقائع، ويصدر فيها رأيه بما انتهى إليه اجتهاده، أصاب أو أخطأ.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٠.

وشروط المجتهد معروفة ومفصلة في كتب أصول الفقه، منها: شروط علمية ثقافية، مثل: العلم باللغة العربية، والعلم بالكتاب والسنة، والعلم بمواضع الإجماع المتيقن، والعلم بأصول الفقه، وطرائق القياس والاستنباط، والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية.. وهذا الأخير هو الذي ركَّز عليه الإمام الشاطبي، وجعله سبب الاجتهاد؛ ولابد مع هذا كله أن يكون لديه ملكة الاستنباط، وهي تنمو بممارسة الفقه ومعرفة اختلاف الفقهاء ومداركهم، ولهذا قالوا: (من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه).

وشرط آخر نبَّه عليه الإمام أحمد، وذكره ابن القيم في كتابه (أعلام الموقعين) وهو: (معرفة الناس). وهذا أمر مهم؛ ألا يعيش المجتهد الذي يفتي الناس في برج عاجي أو صومعة منعزلة، ويصدر أحكامًا بعيدة عن الواقع، أو يطبق أحكام عصر انقضى وأناس مضوا، على عصر آخر وأناس آخرين، مغفلاً هذه القاعدة العظيمة: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف، كما ذكر المحققون.

ويستلزم هذا اطلاع المجتهد على أحوال مجتمعه، وإلمامه بالأصول العامة لثقافة عصره بحيث لا يعيش في واد والمجتمع من حوله في واد آخر، فهو يُسأل عن أشياء، وقد لايدري شيئا عن خلفيتها وبواعثها، وأساسها الفلسفي أو النفسي أو الاجتماعي، فيتخبط في تكييفها والحكم عليها؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ـ كما يقول علماء المنطق.

والمجتهد الحق هو الذي ينظر إلى النصوص والأدلة بعين، وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى، حتى يوائم بين الواجب والواقع، ويعطي لكل واقعة حكمها المناسب لمكانها وزمانها وحالها.

ذكر المحقق ابن القيم أن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: مَرَّ في زمنه على جماعة من جنود التتار قد استغرقوا في شرب الخمر، فأنكر عليهم بعض أصحابه، فما كان منه إلا أن قال لهم: دعوهم في سكرهم ولهوهم، فإنما حرَّم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل الأنفس وسفك الدماء!

وهذا يتمشى مع قاعدة مقررة؛ وهي السكوت على منكر ما، مخافة منكر أكبر منه، ارتكابًا لأخف الضررين، وأهون الشرين.

وهناك شرط آخر في المجتهد، وهو شرط ديني أخلاقي، وهو أن يكون عدلاً مرضي السيرة، يخشى الله فيما يصدر عنه، ويعلم أنه في فتواه في مقام رسول الله ﷺ، فلا يتبع هواه، ولا يبيع دينه بدنياه، فما بالك بدنيا غيره؟!

وإذا كان الله تعالى قد اشترط العدالة لقبوله الشهادة في معاملات الناس فكيف بمن يشهد في دين الله، ويتحدث عن الله بأنه أحل كذا، وحرم كذا، وأوجب كذا، ورخص في كذا.

وهذه الشروط العلمية التي ذكرناها إنما يجب توافرها في حق المجتهد المطلق، أي: الذي يجتهد في جميع أبواب الفقه ومسائله؛ أما المجتهد الجزئي فيكفيه أن يحيط من العلم بما يتعلق بمسألته، بعد أن تكون عنده المؤهلات العلمية العامة، بناء على أن الاجتهاد يتجزأ، وهو القول الراجح عند الأكثرين.

فيستطيع أستاذ الاقتصاد أن يجتهد في مسألة ما في مجال تخصصه، إذا أحاط بكل ما ورد فيها من نصوص، وما يتعلق بها من اجتهادات، إذا كان لديه المعرفة بأصول الاستدلال وقواعد التعارض والترجيح وغير ذلك.

* ثارت مناقشات كثيرة حول قضية الاجتهاد في السنوات الأخيرة، مما أدى إلى ظهور بعض الاجتهادات المنحرفة في هذا السبيل، وما دام الأمر كذلك فلابد من وضع ضوابط تجب مراعاتها في الاجتهاد الشرعي المعاصر؛ حتى يمكن للمسلمين التعرف على هذه الاتجاهات ونبذها. فما هذه الضوابط في رأيكم؟

ـ الضوابط التي ينبغي مراعاتها في الاجتهاد المعاصر أستطيع أن أجملها في هذه النقاط:

البعد عن منطقة (القطعيات) فمجال الاجتهاد ما كان دليله ظنيًا من الأحكام، ولا يجوز لنا أن ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون أن يحولوا القطعي إلى ظني، والمحكم إلى متشابه. وبذلك لا يبقى لنا معول نعتمد عليه، ولا أصل نحتكم إليه.

وكما لم نجز تحويل القطعي إلى ظني، يجب ألا نحول الظني إلى قطعي، ونزعم الإجماع فيما يثبت فيه الخلاف.. فلا يصح أن نشهر سيف الإجماع في وجه كل مجتهد، كما فعل معاصرو ابن تيمية في اختياراته واجتهاداته، مع أن الإمام أحمد قال: (من ادَّعى الإجماع فقد كذب، ما يدريه: لعل الناس اختلفوا وهو لا يدري).

أخشى ما أخشاه هو الهزيمة النفسية أمام الحضارة الوافدة، والاستسلام للواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه الإسلام، ولم يصنعه المسلمون، بل صنعه لهم الاستعمار المتسلط، وفرضه عليهم بالقوة والمكر، وقام هذا الباطل الدخيل، في غفلة من أهل الحق الأصيل، الذي لدى المسلمين.

لهذا يجب رفض ذلك النوع من الاجتهاد ـ إن صح أن يسمى اجتهادًا ـ وهو اجتهاد (التبرير للواقع) خاصة إذا كان فيه إرضاء للسلطة الحاكمة، واجتهاد (التقليد للآخرين) كاجتهاد الذين يحاولون منع الطلاق وتعدد الزوجات، ومحاربة الملكية الفردية، وتسويغ الفوائد الربوية . . . وغيرها.

يجب أن يتحرر المجتهد من الخوف بكل ألوانه، الخوف من سلطان المتسلطين من الحكام، الذين يريدون فتاوى جاهزة دائمًا تبرر تصرفاتهم، وتضفي الشرعية على أعمالهم. . والخوف من سلطان الجامدين المقلدين من العلماء، الذين يشنون الغارة على كل اجتهاد جديد، وهم الذين كانوا وراء سجن ابن تيمية ومحنه المتتابعة، فقد كانت محنته رحمه الله منهم لا من السلاطين. . وأن يتحرر من الخوف من سلطان الجماهير والعوام الذين يستطيع هؤلاء المقلدون أن يثيروهم على كل رأي مخالف لما ألفوه.

يجب أن نفسح صدورنا للاجتهاد وإن خالف ما نشأنا عليه من آراء وأن نتوقع الخطأ من المجتهد، ولا نضيق به ذرعًا، لأنه بشر غير معصوم، وقد يكون ما حسبناه خطأ هو الصواب بعينه، ورب رأي رفضه جمهور الناس يومًا، ثم أصبح بعد ذلك هو الرأي المقبول والمرتضي، وليس في الإسلام سلطة (بابوية) تقول: هذا الرأي صواب فيغدو صوابًا، ويستحق البقاء، وذلك خطأ فيحذف من الوجود، ويحكم عليه بالإعدام (١).

* هناك قضايا معاصرة يحتاج المسلمون فيها إلى فقه متجدد يحل لهم مشكلاتهم. . ما هي أهم هذه القضايا، وكيف ترى هذه الأمور داخل إطار العملية الاجتهادية؟

---

(١) انظر: فصل (معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قديم) من كتابنا: (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) نشر دار القلم بالكويت.

- نظرا لتغير الحياة عما كانت عليه في الأعصار الماضية، وتطور مجتمعات اليوم تطوراً هائلاً في الأفكار والسلوك والعلاقات ، فإن عصرنا الحاضر أحوج ما يكون إلى الاجتهاد . . وذلك بعد (الثورة البيولوجية) و(الثورة التكنولوجية) التي يشهدها العالم، وكان من جرائها أن طرحت قضايا جديدة كل الجدة مثل : أطفال الأنابيب، وشتل الجنين، وبنوك الأجنة المجمدة، والتحكم في جنس الجنين، وزرع الأعضاء، ونقل الدم . . وما جدَّ في العلاقات الدولية والأنظمة المالية والاقتصادية من أشياء لم يعرفها السابقون، أو عرفوا بعضها في صورة مصغرة جداً.

فهذه وما شابهها تقتضي اجتهاداً جديداً، وهو ما نسميه (الاجتهاد الإنشائي) أي : الذي يُصدر فيه المجتهدون حكمًا جديداً، وإن لم يتقدم من قال به من فقهائنا السابقين، ولم ينص عليه أحد؛ مثل زكاة العمارات والمصانع والأسهم والسندات والرواتب، واعتبار الذهب وحده أساس نصاب النقود، وإيجاب زكاة الأرض المستأجرة على كل من المالك والمستأجر: يزكي المستأجر الخارج من زرع أو ثمر . . طارحًا منه الأجرة؛ لأنها دَيْنٌ عليه، ويزكي المالك الأجرة . .

وهناك اجتهاد آخر أسميه (الاجتهاد الانتقائي)، وهو اختيار أرجح الأقوال من تراثنا الفقهي العظيم [1]، مما نراه أقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، وأليق بظروف العصر؛ وقد يكون الانتقاء داخل المذاهب الأربعة، مثل ترجيح مذهب أبي حنيفة في إيجاب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض، وترجيح مذهب الشافعي في إعطاء الفقير كفاية العمر، وترجيح مذهب مالك في إبقاء سهم المؤلفة قلوبهم . . .

وقد يكون الانتقاء من خارج المذاهب الأربعة: فالأئمة الأربعة - على جلالتهم وفضلهم - ليسوا كل الفقهاء، فهناك من عاصرهم من نظرائهم ومن يمكن أن يكون قد تفوق عليهم، وهناك من سبقهم من شيوخهم، وشيوخ شيوخهم من فقهاء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ممن هم أفضل منهم بيقين.

---

(١) انظر: كتابنا (شريعة الإسلام) - كيف نختار من تراثنا الفقهي ص (١١٠) ط. المكتب الإسلامي بيروت.

فلا حرج في الأخذ بمذهب أحدهم ترجح لدينا باعتبارات شرعية كالأخذ بمذهب عمر رضي الله عنه في التضييق في زواج الكتابيات إذا خيف منهن على نساء المسلمين أو الذرية، أو خيف عدم التدقيق في شرط الإحصان: المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ...﴾ (1) أي: العفيفات منهن، أو الأخذ بمذهب عطاء في إيجاب المتعة لكل مطلقة، أو الأخذ بمذهب بعض السلف في عدم وقوع الطلاق في حالة الغضب الشديد، وهو ما فسروا به حديث: «لا طلاق في إغلاق» (2) أو مذهب بعضهم في إيقاع طلاق الثلاث بلفظة واحدة أو في مجلس واحد، طلقة واحدة رجعية فقط، وهو ما أفتى به ابن تيمية وابن القيم، ومثله: عدم إيقاع الطلاق البدعي: أي الطلاق في حالة الحيض، وكذلك الطلاق إذا أريد منه الحمل على شيء أو المنع منه، فيعامل معاملة اليمين، وفيه كفارة يمين..

ونحو ذلك الأخذ بمذهب بعض السلف في وجوب الوصية لمن لا يرث من الأقربين، وعلى أساسه قام في مصر وغيرها قانون (الوصية الواجبة) للأحفاد إذا مات آباؤهم أو أمهاتهم في حياة والديهم، فلهم نصيب الوالدين بشرط ألا يزيد على الثلث، من باب الوصية، لا من باب الميراث.

ومن ذلك ما رجحه العلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر من الإفتاء بمذهب عطاء وطاووس من التابعين، في جواز رمي الجمرات قبل الزوال في الحج، تيسيراً على الناس، ورفعًا للحرج والمشقات الهائلة، التي يتعرض لها الناس من الزحام حول الرمي، إلى حد الهلاك تحت الأقدام.

والاجتهاد الذي نحتاج إليه في عصرنا هو «الاجتهاد الجماعي» الذي يقوم في صورة مجمع فقهي عالمي، يضم الكفايات العلمية العالية، ويصدر أحكامه بعد دراسة وفحص، بشجاعة وحرية، بعيداً عن ضغط الحكومات، وضغط العوام.

---

(1) سورة المائدة: الآية ٥.

(2) رواه أحمد في مسنده ٦/ ٢٧٦، وأبو داود في كتاب الطلاق (٢١٩٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٦)، وأبو يعلى في مسنده (٤٥٧٠)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ٢/ ١٩٨ وقال الذهبي: كذا قال ومحمد بن عبيد لم يحتج به، وقال أبو حاتم: ضعيف

ومع هذا أؤكد أنه لا غنى عن الاجتهاد الفردي الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي بما يقدم من دراسات متأنية مخدومة.

* يتهم بعض الدعاة إلى الإسلام أحيانًا بأنهم أنصار للجمود والتشدد، ومعاداة أي تجديد.. فهل يرتبط هذا بحقيقة واقعة، أم أنه يرتبط برغبة أخرى خفية؟

وهل لنا أن نتعرف على الموقف الصحيح للدعاة من قضية التجديد؟

ينقسم الناس بشأن التجديد إلى أصناف ثلاثة:

١ـ أعداء التجديد الذين يريدون أن يبقى كل قديم على قدمه، حكمتهم المأثورة: ما ترك الأول للآخر شيئًا! وشعارهم المرفوع: ليس في الإمكان أبدع مما كان!

وهم بجمودهم يقفون في وجه أي تجديد: في العلم، في الفكر، في الأدب، في الحياة، فما بالك بالدين؟! إن مجرد كلمة (التجديد) بالنسبة للدين يعتبرونها هرطقة.

وفي مجال الدين وجدت فئتان ينتهي موقفهما إلى (تجميد الإسلام) تحدثت عنهما في بعض ما كتبته في مجلة (الأمة) بمناسبة القرن الخامس عشر، وهما: فئة (مقلدي المذاهب) المتعصبين لها، الذين يرفضون أي خروج عليها، ولايعترفون بحق الاجتهاد لفرد ولا لجماعة في هذا العصر، إلا في إطار ما قررته مذاهبهم وحدها، بل في حدود ما حرره المتأخرون من علماء المذهب، وأفتوا به؛ فلا يجوز الخروج عن الرأي المفتى به في المذهب، إلى أقوال وآراء أخرى داخل المذهب نفسه!

والفئة الأخرى هي التي سميتها (الظاهرية الجدد) وأعني بهم الحرفيين الذين يقفون جامدين عند ظواهر النصوص، ولا يمعنون النظر إلى مقاصدها، ولا يفهمون الجزئيات في ضوء الكليات، ولا غرو أن تراهم يقيمون معارك حامية من أجل أمور هامشية في الدين، وهؤلاء وأولئك قوم مخلصون للإسلام، ولكنهم معه كالأم التي تسببت في موت وليدها بحبسه والإغلاق عليه خوفًا عليه من مس الشمس ولفح الهواء!

٢ـ ويقابل هؤلاء: الغلاة في التجديد، الذين يريدون أن ينسفوا كل قديم، وإن كان هو أساس هوية المجتمع، ومبرر وجوده، وسر بقائه، كأنما يريدون أن يحذفوا (أمس) من الزمن، ويحذفوا (الفعل الماضي) من اللغة، ويحذفوا (علم التاريخ) من علوم الإنسان!

وتجديد هؤلاء هو التغريب بعينه. إن قديم الغرب عندهم جديد، فهم يدعون إلى اقتباسه بخيره وشره، وحلوه ومره.. وهؤلاء هم الذين سخر منهم الرافعي ـ رحمه الله ـ حين دخل معركته معهم (تحت راية القرآن) وقال: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!

ورد عليهم شاعر الإسلام محمد إقبال بأن (الكعبة لا تجدد بجلب حجارة لها من أوروبا)! وأشار إليهم أحمد شوقي ـ أمير الشعراء ـ في قصيدته عن الأزهر:

ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عُمِّرا!

من كل ساع في القديم وهدمه ... وإذا تقدم للبناية قصّرا!

وهذا الصنف والذي قبله هما اللذان شكا منهما الأمير شكيب أرسلان حين قال في كتابه: (لماذا تأخر المسلمون؟) إنما ضاع الدين بين جامد وجاحد، ذلك ينفر الناس منه بجموده، وهذا يضلهم عنه بجحوده.

٣ـ وبين هذين الصنفين يبرز صنف وسط، يرفض جمود الأولين، وجحود الآخرين، يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويقبل التجديد، بل يدعو إليه، وينادي به، على أن يكون تجديداً في ظل الأصالة الإسلامية، يفرق بين ما يجوز اقتباسه، وما لا يجوز، ويميز بين ما يلائم وما لا يلائم.

إنه يدعو إلى أخذ العلم المادي والتقني بكل ما يستطيعه مما تحتاج الأمة إليه، بشرط أن نهضم التكنولوجيا وننشئها، لا أن نشتريها ونظل غرباء عنها.

وهذا هو موقف دعاة الإسلام الحقيقيين: إن شعارهم: الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح.. الانفتاح على العالم دون الذوبان فيه.. الثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل.. التشديد في الأصول والتيسير في الفروع.

* بين الاجتهاد والتجديد ـ كمفهوم معاصر ـ صلة، فإذا كان الإسلام يعتبر الاجتهاد أداة لفهم أحكام القرآن والسنة، فهل يقبل الإسلام التجديد كما يقبل الاجتهاد؟ أم أنه ينافي طبيعة الدين الذي جاء ليضبط الحياة بعقائده وقيمه ومفاهيمه وأحكامه، أم لكل منهما مجاله الذي يعمل فيه؟

ـ أدهشني إنكار عالم فاضل نسبة التجديد إلى الدين ـ في حوار مع أحد الصحفيين ـ باعتبار أن الدين ثابت لا يتجدد ولايتطور، ودافعه إلى هذا ـ فيما أعتقد ـ خشيته أن يفهم الناس من إطلاق كلمة (تجديد الدين) إعمال يد التغيير فيه بالحذف أو الزيادة، فأراد أن يسد الباب كلية بإنكار مطلق التجديد.

والحقيقة أن الحديث النبوي الشريف قد فصل في هذه القضية، وذلك فيما رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وغيرهم، بإسناد صحيح «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(١)، وليس بعد قول رسول الله ﷺ قول، ولا بعد حكمه حكم.

وكثير من العلماء المخلصين ينكرون أشياء ثابتة؛ لسوء استخدام بعض الناس لها، وهم بهذا يعالجون الخطأ بخطأ، والمنهج السليم هو إثبات الثابت، وإعطاؤه التفسير الصحيح، ورد كل فهم أو تفسير خاطئ، أو تطبيق غير سليم.

فتجديد الدين ثابت بالنص، ولكنه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعًا منه، ولونًا من ألوانه، فالاجتهاد تجديد في الجانب الفكري والعلمي، أما التجديد فيشمل الجانب الفكري والجانب الروحي، والجانب العملي، وهي الجوانب التي يشملها الإسلام، وهي: العلم والإيمان والعمل.

وأمتنا أحوج ما تكون اليوم إلى من يجدد إيمانها، ويجدد فضائلها، ويجدد معالم شخصيتها، ويعمل على إنشاء جيل مسلم يقوم في عالم اليوم بما قام به جيل الصحابة من قبل، وهو الذي سميناه (جيل النصر المنشود). وقد بدأ هذا التجديد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، من أمثال حسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، وأبي الأعلى المودودي رحمهم الله،

---

(١) صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» رقم (١٨٧٤) ط ٢٠، والحديث سبق تخريجه.

وعلى من بعدهم أن يكملوا المسيرة ويصححوها حتى يتم الله نوره. . .

* للحديث الشريف: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها» أهمية في القضية، فماذا تعني كلمة (مَنْ) كما وردت في الحديث وهل تظل عملية ترقب المسلمين لفرد مجدد ملازمة لتفكير المسلم في بداية أو نهاية كل قرن هجري، في ظل الفهم الإسلامي لدور الجماعة في حياة الفرد يبدو أنَّ مفهوم الحديث يحمل المسلم مهمات وتبعات في إطار تجديد أمر الدين. .

- هذا الحديث الذي رواه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، والطبراني في الأوسط: يمد الأمة بشعاع قوي من الأمل، يطرد عنها ظلام اليأس، ويبعث فيها الروح والأمل في أن الله لا يدعها طويلاً لأنياب الضعف حتى تفترسها، ولا لدخان الهمود حتى يخنقها، ولا لمخالب التمزق حتى تقتلها، بل يهيئ لها بين قرن وآخر، من يجمعها من شتات، ويحييها من موات، ويوقظها من سبات، وهذا بعض معاني التجديد، فهو يجددها بالدين، ويجدد بها الدين.

وقد فهم جُلُّ شراح الحديث ـ كما تبين ذلك من الدراسة السابقة ـ أن المراد بـ (من) يجدد الدين فيه: فرد واحد، يهبه الله من الفضائل العلمية والخلقية والعملية ما يجدد به شباب الدين، ويعيد إليه الحيوية والقوة، عن طريق علم نافع، أو عمل صالح، أو جهاد كبير، وهذا ما جعلهم يحاولون تجديد هذا (المجدد) على رأس كل قرن، فاتفقوا حينًا، واختلفوا حينًا آخر؛ فقد اتفقوا على أن مجدد المائة الأولى: خامس الراشدين عمر بن عبدا لعزيز. . ومجدد المائة الثانية: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومجدد المائة الخامسة: أبو حامد الغزالي، ومجدد المائة السادسة: ابن دقيق العيد، واختلفوا فيما عدا ذلك اختلافًا شاسعًا.

وأرى أن (مَنْ) في الحديث، وفي لغة العرب عامة تدل على الجمع، كما تدل على المفرد، وهي هنا تدل على الجمع كذلك، فمن يجدد الدين في كل قرن ليس بالضرورة فردًا معينًا، بل جماعة من الناس، قد يكون منهم العلماء، ومنهم الولاة، ومنهم القواد، ومنهم المربون. . وقد يكونون في بلد واحد، وقد يكونون في عدد من البلاد، وقد يعمل كل منهم وحده في مجاله، وقد يتعاونون فيما بينهم

فيما يشبه الرابطة أو الجمعية، وقد يكون تجديد بعضهم في مجال الدعوة والثقافة، وآخر أو آخرين في مجال الفقه، وجماعة في مجال التربية والتكوين، وغيرهم في مجال الإصلاح الاجتماعي، وفئة أخرى في المجال الاقتصادي، وخامسة في المجال السياسي، ولا مانع من تعدد هذه المجالات واختلاف ألوان العمل والتجديد، على أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض، أعني: أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع المختلفة من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضًا، ويشد بعضها أزر بعض لا أن ينكر بعضها على الآخر، أو يعوق بعضها بعضًا فيؤدي ذلك إلى ضعفها جميعًا وقوة أعدائها.

إن ربط التجديد بفرد واحد فذّ، يجعل الناس يعيشون على أمل ظهوره، وكل ما عليهم انتظاره حتى تنشق الأرض عنه ليجدد ما عجزوا عنه، هذا سر تعلق الجماهير بفكرة (المهدي المنتظر) والذي أراه أن يُربط التجديد بجماعة أو مدرسة أو حركة، يقوم كل مسلم غيور فيها بنصيبه في موكب التجديد، ويسهم على قدر طاقته في مسيرته، ولا يصبح السؤال إذن متى يظهر المجدد للدين؟ بل يكون: ماذا أعمل لتجديد الدين؟

* في عالمنا الإسلامي ارتبط التجديد والمجددون باتجاهات مختلفة، ودعاوى باطلة من علمانية، أو إلحاد خفي، لتجريد المسلمين من حقيقة دينهم، فهل هذا التجديد، وهؤلاء هم المجددون؟

تسمية هؤلاء بـ (المجددين) تسمية خاطئة، هؤلاء (مبددون) لا مجددون؛ لأنهم لا يمتون إلى التجديد الحقيقي بصلة، فتجديد شيء يعني العودة به إلى ما كان عليه عند بدايته وظهوره لأول مرة، وترميم ما أصابه من خلل على مر العصور، مع الإبقاء على طابعه الأصيل، وخصائصه المميزة، هذا ما نصنعه في أي قصر أو بناء أثري عريق نريد تجديده، فلا نسمح بتغيير طبيعته، وتبديل جوهره، أو شكله أو ملامحه، بل نحرص كل الحرص على الرجوع به إلى عهده الأول، أما إذا هدمناه وأقمنا مكانه بناء شامخًا على الطراز الحديث، فهذا ليس من التجديد في شيء.

والذين أشرت إليهم في سؤالك هم من هذا النوع الذي يريد هدم (الجامع)

القديم ليقيم على أنقاضه (كنيسة) حديثة، بكل مقوماتها وخصائصها، إلا أنه كتب عليها اسم (جامع)!

والذي سمى هؤلاء (مجددين) إنما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصِّرين، وتسميتهم الحقيقية (عبيد الفكر الغربي)، فهم لا يرقون ليكونوا تلاميذا الفكر الغربي، فإن التلميذ يناقش أستاذه، وقد يخالفه ويرد عليه، ولكن موقف هؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية والعبودية، التي ترى أن كل ما يؤمن به الغرب هو الحق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل!

ويستوي في هذا عبيد اليمين وعبيد اليسار، فمنبع الجميع واحد، وكلهم فرع من الشجرة الملعونة في القرآن والتوارة والإنجيل: شجرة المادية الخبيثة التي تفرغ الإنسان من الروح، والحياة من الإيمان، والمجتمع من هداية الله؛ وقد كشف زيف هؤلاء من أدعياء التجديد أستاذنا الدكتور محمد البهي ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) (١).

المجدد الحقيقي هو الذي يجدد الدين بالدين وللدين، أما من يريد تجديد الدين من خارجه، أي: بمفاهيم مستوردة وأفكار دخيلة، ويجدده لمصلحة الغرب أو الشرق فهو أبعد ما يكون عن التجديد الحق. .

---

(١) لمزيد من المعرفة بهذا الموضوع راجع فصل: (أصالة لا رجعية، وتحديث لا تغريب) من كتابنا (بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين) نشر مؤسسة الرسالة. بيروت، ومكتبة وهبة. القاهرة.

الإسلام والتطور

أيسلم التطور أم يتطور الإسلام ؟

مما لا خلاف عليه أن حياة الإنسان فوق هذا الكوكب تتغير وتتطور من حال إلى حال، يتسع في بعض المجالات هذا التطور، ويضيق في أخرى.

وأوسع مجال للتطور، إنما هو في الأشياء التي يستخدمها الإنسان، من مطعم، وملبس، ومركب، ومسكن، وسلاح، وآلة، ونحو ذلك.

ونستطيع أن نضرب مثلاً واضحًا بوسائل النقل والمواصلات:

فقد كان الإنسان يمشي إلى غرضه على قدميه، ثم استطاع أن يستأنس بعض الدواب ليستخدمها في الركوب والحمل كالبعير والحصان والحمار، ثم اهتدى إلى صنع سفينة تجريها الرياح في البحر، وصنع عربة تجرها الدابّة في البر، وظل آلاف السنين حتى هدى إلى صنع العربة التي تدار بالبخار أو بغيره من القوى المحركة، ثم صنع الطائرة التي قربت العالم بعضه ببعض حتى كأنه قرية واحدة، وأخيراً الصاروخ ومركبة الفضاء التي استطاع بها أن يصعد إلى كوكب القمر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسائل إشارة خاطفة، ولكن لها دلالتها وإيحاؤها حين قال: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(1).

وبجوار هذا النوع من التطور يوجد آخر في عالم المعاني والأفكار، وفي العادات والتقاليد وفي المثل والأخلاق، والتطور هنا قد يحمد كما قد يذم؛ لأنه

---

(1) سورة النحل: الآية ٨.

ليس دائمـا في مصلحـة الإنسـان، فقـد يرقى به حتى يدنو من أفق الملائكة، وقد يهبط به حتى ينزل إلى درك الحيوان.

والسؤال الذي يطرح هنا: ما موقف الإسلام من التطور؟ هل يقبله ويرحب به، أم يرفضه ويقاومه؟

مواقف الناس من التطور:

ولكي يتضح لنا موقف الإسلام جليًا من هذا الأمر؛ ينبغي علينا أن نبين أن هناك مواقف ثلاثة وقفها الناس من التطور:

موقف الرفض المطلق:

الأول: موقف الرفض المطلق لكل تغيير أوتجديد، في أي جانب من الحياة ـ علميًا كان أو عمليًا، ماديًا أو معنويًا ـ وإبقاء كل قديم على قدمه، ومقاومة كل جديد، من أي مصدر جاء، وعلى أي صورة ورد.

وهذا هو موقف الكنيسة الغربية في العصور الوسطى المسيحية، فقد تبنت أفكاراً ونظريات في علوم الجغرافيا والفلك والطب والإحياء وغيرها، وأضفت عليها من القداسة ما جعلها جزءاً من الدين نفسه، ومثل ذلك ما اعتنقته من أفكار وتقاليد بصيغة الدين، فلم تعد تسمح لأحد أن يخالفها أو ينتهي به بحث حر إلى مخالفتها، وويل ثم ويل لمن حدثته نفسه بمخالفتها!

وقد ذكر الأستاذ الإمام محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) من مواقف الكنيسة ورجالها ما يثير العجب والدهشة.

قال دي رومنيس: إن قوس قزح ليست قوسًا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا شاء، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء؛ فجلب إلى روما وحبس حتى مات، ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار!

وأظهر (بلاج) رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم، أي أن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطئ آدم بالأكل من الشجرة، فقامت لذلك ضوضاء،

وارتفعت جلبة، وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك الاعتقاد.

إن القول بكروية الأرض قد أحدث اضطرابًا شديدًا في عالم المسيحية، مع أن المسلمين قد عرفوه منذ أول الخلافة العباسية، ولم تتحرك له شعرة من بدن، بل صار يذكر في كتب التفسير والتوحيد وغيرها بلا حرج.

اكتشف بعض الأميركان تخدير المرأة عند الولادة، حتى لا تحس بألم الطلق، فقامت قيامة القسيسين؛ لأنه يخلص المرأة من اللعنة أو العقوبة الأبدية التي سجلت عليها في التوراة في سفر التكوين، الإصحاح الثالث. ففيه: «وقال ـ أي الرب ـ للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولادًا».

وفي الآستانة اكتشف المسلمون طريقة طبيّة للحقن تحت الجلد ثم نقلتها إلى أوروبا ـ سنة ١٧٢١م ـ امرأة تسمى مارى موناجو، فثار رجال الكهنوت وعارضوا في استعمالها، وعادت هذه الشدة في المعارضة عند اكتشاف طريقة التطعيم ضد الجدري.

أنشئت محكمة التفتيش في أوروبا لمقاومة العلم والفكر الحر، عندما خيف ظهورها بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته، وبخاصة في جنوب فرنسا وإيطاليا، وكان الذي طلب إنشاءها هو الراهب (تور كماندا).

قامت هذه المحكمة الغربية بأعمالها حق القيام، ففي ١٨ سنة، من سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م، حكمت على ١٠,٢٢٠ عشر آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بأن يحرقوا وهم أحياء، فأحرقوا، وعلى ٦١٨٦٠ بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا، وعلى ٩٧,٠٢٣ بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توراة بالعبرية.

هذا كان موقف الكنيسة، ولكن التطور كان أقوى منها، فإن الشرارة التي انتقلت من الشرق المسلم إلى الغرب المسيحي، ظلت تتسع وتعلو، حتى أصبحت نارًا هائلة لا يقف دونها شيء، فلا غرو أن ثارت الجماهير الهائجة على الكنيسة التي وقفت مع الجهل ضد العلم، ومع الخرافة ضد الفك، ومع الملوك والنبلاء ضد الشعب، وقالت الجماهير قولتها: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس).

موقف الخضوع المطلق للتطور:

والموقف الثاني: على نقيض الموقف السابق، فهو موقف الخضوع المطلق، والمسايرة العمياء لكل تغيير وكل جديد، دون تمييز بين ما يجوز وما لا يجوز، وما ينبغي وما لا ينبغي، بناء على فكرة غربية مؤداها: أن اللاحق خير من السابق، وأن أي جديد خير من أي قديم، وأن مولود اليوم خير من مولود الأمس، وأكثر من ذلك أنهم لا يقنعون بمجاراة التطور بل ينادون بتطوير كل شيء، وتغيير كل القيم والفضائل والتقاليد والشرائع، يجب قلب الحياة رأسًا على عقب.

يمثل هذا الموقف في مجتمعاتنا فريقان من الناس:

فريق الأذناب المقلدين للمعسكر الغربي الذين هالهم صنم الحضارة الغربية، فبرروا كل ما تجيء به، وتحمسوا له، ودعوا إليه، باسم التطور والتجديد، ولو كان هو العري والانحلال، والإلحاد والإباحية، على حين بدأ الغربيون أنفسهم يراجعون موقفهم، وينقدون حضارتهم، ويغيرون مفاهيمهم في كثير من الأمور.

وهؤلاء هم الذين سخر منهم أديب العربية والإسلام المرحوم مصطفى صادق الرافعي فقالَ: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!! وقال فيهم شوقي في قصيدته عن «الأزهر»:

لا تَحْذُ حــذو عصــابة مفتــونة ... يجدون كل قديم شيء منكرا

ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مـات مـن آبائهم أو عُمِّرا

من كل ماضٍ في القـديـم وهدمه ... وإذا تقـدم للبنـايـة قصـرا!

والفريق الثاني هم (الماركسيون) الذين يقولون بحتمية التطور، وينادون بأن ما يأتي به التطور أفضل - ولابد - مما كان قبله.

وهم يتحدثون دائمًا عن الجانب المتطور من حياة الإنسان، ويغفلون الجانب الثابت فيها.

ولاشك أن الحياة البشرية تتعرض لكثير من التغير والتطور، ولكن جل هذا التطور إنما يتعلق بما حول الإنسان أكثر من تعلقه بالإنسان ذاته، أما جوهر الإنسان فهو هو.

فـآدم الذي اسـتـدرجـه الشـيطان بغـريزة حب الخلود والبـقـاء إلى الأكل من الشجرة، لا يزال ماثلاً في أبنائه الذين تدفعهم نفس الغريزة إلى مخالفات أخرى.

وابن آدم الذي حسـد أخاه فقتله بحجر أو نحوه، ثم حار في دفنه حتى علمه غراب يبحث في الأرض كيف يواري سوأة أخيه، لا يزال إلى اليوم يحسد ويقتل، وإن تطورت أدوات القتل، وتنوعت في يديه، وأصبح قادراً على إذابة الجثة ببعض الحوامض والمحلولات الكيميائية حتى لا يبقى لها أثر!!

والوازع الأخلاقي الذي جعل آدم بعد خطيئته يندم ويتوب ويستغفر قائلاً: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١)، وهو الوازع الذي تمثل بأجلى صورة في خير ابني آدم حين قال لأخيه: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، وتمثل - بصورة ما - في ندم القاتل بعد دفن أخيه، هذا الوازع لا زال قائمًا في فطرة البشر وإن وطئت أقدامهم سطح القمر، على تفاوت بينهم.

إن الدوافع الفطرية في الإنسان لم تتغير، وإن تغيرت بعض طرائق إشباعها، كان الإنسان يأكل الطعام نيئًا كالحيوان والطير، ثم تعلم أن يطبخه على نار وقودها الحطب أو الخشب أو الفحم، ثم اخترع موقداً بالزيت ثم بالكهرباء، ولكنه على كل حال بقي إنسانًا يأكل ويشرب، ويجوع ويشبع، ويظمأ ويرتوي، ويحس بالتوتر والانفعال إذا جاع أو عطش، وبالراحة واللذة إذا شبع وارتوى.

والقيم الدينية والخلقية الأصيلة من الشعور بالحاجة إلى الله، واللجوء إليه عند الشدة والندم على الخطيئة، وحب الصدق والأمانة والفضيلة، وكراهية الرذيلة والكذب والخيانة، لا يزال لها وزنها وقيمتها في حياة البشر وسلوكهم، وإن غشيتها الغواشي عند بعض الناس، أو أدركها الرين والصدأ.

فليس لنا أن نبالغ في التطور الذي أدركه الإنسان، فإنما هو تطور في محيط الإنسان، لا في جوهر الإنسان، تطور فيما يستخدم الإنسان لا في حقيقة الإنسان.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٨.

صحيح أن معرفة الإنسان بظواهر الكون وما فيه من أشياء قد تغيرت واتسعت، ولكن هذا لم يغير جوهر الإنسان.

الموقف الوسط وهو موقف الإسلام:

والموقف الثالث: هو الموقف الوسط، موقف التميز والاعتدال بين المتزمتين والمتحللين، بين الذين يريدون أن يجمّدوا الحياة، ويقفوا في سبيل نموها وتقدمها، والذين يريدون أن يجعلوها فوضى، لا تحكمها قيم ولا عقائد، ولا تضبطها فضائل ولا شرائع. إنه موقف يواجه التطور بالحكمة، بل يوجهه بالحق، بل يدفع إلى التطور النافع، ويخلقه ويغذيه بالوقود.

إنه موقف الإسلام الصحيح، الذي يجمع بين الثبات والمرونة في أحكامه وتعاليمه.

الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والآلات.

الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.

الثبات على الأخلاقيات والدينيات، والمرونة في الماديات والدنيويات.

نجد هذا الثبات في العقائد الرئيسية، والفرائض الأساسية، وأمهات الفضائل وأصول المحرمات، وكليات الشريعة، ونحو ذلك مما لا يختلف باختلاف الأزمان والبيئات والأحوال، كما نجد المرونة في الأحكام الفرعية الجزئية التي تتسع لأكثر من نظرة، وأكثر من اجتهاد، ولم يضيق الله فيها على عباده، فمن اجتهد فيها فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر، وهي التي قال فيها فقهاؤنا: إن الفتوى فيها تتغير بتغير المكان والزمان والعرف والحال.

ونجد مرونة أكثر وأكثر في أمور الدنيا: الأمور التقنية والفنية التي تتعلق بالوسائل والأساليب، فهذه هي التي قال فيها الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1].

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة وأنس في كتاب الفضائل (٢٣٦٣)، وانظر: صحيح الجامع برقم (١٤٨٢) الطبعة الثانية، طبع المكتب الإسلامي.

وهذه الأمور يجب أن يتقنها المسلمون، ويتفوقوا فيها، ولا حرج عليهم أن يقتبسوها من غيرهم إن لم تكن عندهم.

لقد كان الرسول ﷺ يخطب على جذع نخلة في المدينة فلما كثر المسلمون، واستقر لهم الأمر، استدعى له نجار رومي، فصنع له منبراً من ثلاث درجات، فكان يخطب عليه ولم يقل: هذا من صنع رجل رومي فلا أستعمله.

وفي غزوة الأحزاب أشار عليه سلمان بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين، فأعجب برأيه ونفذه، ولم يقل: هذا من أساليب المجوس، لانأخذ به.

وكذلك جاء أصحابه من بعده، فسنوا أنظمة وأعمالاً لم تكن في عهد الرسول ﷺ مثل تدوين الدواوين، وتمصير الأمصار، وجمع القرآن في مصاحف، وتوزيعه على الأقاليم، وتخصيص أناس لوظيفة القضاء وحدها، وإدخال نظام البريد، وغير ذلك من الأمور التي لا ريب في فائدتها، وحسن أثرها، والتي لم يضيق هذا الدين بها صدراً، كيف وقد سنها الراشدون المهديون الذين تعد سنتهم جزءاً من هذا الدين، يهتدى بها، ويعض عليها بالنواجذ؟!

لقد شاء الله أن يتضمن هذا الدّين كلمات الله الأخيرة للبشرية، بعد أن بلغت أشدها، واستحقت أن ينزل عليها الرسالة العامة الخالدة؛ فلا عجب أن أودع فيه من السعة والتيسير والمرونة ما يواجه به التطور، ويصلح لكل بيئة، وكل أمة، وكل جيل، بل أودع فيه من القيم والأفكار والأصول الفكرية والخلقية والتشريعية ما يدفع إلى النمو والحركة والرقي، وما يكفي لخلق حضارة ربانية إنسانية تلتقي فيها الدنيا والدين، والعلم والإيمان، والتمدن والأخلاق.

إنه لا يرفض كل تطور ولو كان يحمل في ثناياه العلم والحكمة والحق والخير، ولا يقبل كل تطور ولو كان يحمل في تياره الفساد والانحراف والسقوط، وإنما يرد كل أمر إلى الكتاب الذي أنزله الله بالحق والميزان؛ فإن الله لم يدع خلقه هملاً، ولم يتركهم سدى، بل أعطاهم المعيار الذي به يقوّمون كل شيء في الحياة.

إن الإسلام يرفض الجمود ويدعو إلى الحركة، والحركة الدائبة المستمرة، ولكنه يريدها حركة هادفة عاقلة، لا حركة هوجاء مخربة، يريدها حركة النهر

الدافق في مجراه الأمين، لا حركة السيل المتهدر المنطلق بلا مجرى ولا ضوابط ولا حدود. إن النهر والسيل كلاهما يجري ويتحرك بماء عذب، ولكن النهر يشيع الحياة والخضرة والبركة حيثما جرى، والسيل يعقب الدمار والخراب، ويهلك الزرع والضرع حيثما سار.

إن الإسلام يريد للإنسان أن يتحرك ويعمل، بشرط أن تكون حركته إلى هدف يليق بإنسانيته الكريمة على الله، وأن تكون في مدار مأمون، يأمن فيه أن يتحطم أو يحطم. إنها كما قال الشهيد سيد قطب بحق: «الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت».

إن الإسلام يقبل التطور العاقل الصالح الذي تحكمه قيم الحق والخير والفضيلة، وتضبطه موازين العدل الذي أنزل الله به كتابه وبعث به رسوله، أما الانطلاق العربيد فهو كالجمود البليد، كلاهما مرفوض في نظر الإسلام.

متى يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر:

وإنما يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر والضرر نتيجة لأحد أمرين:

الأول: أن يجمّد ما من شأنه التغير والتطور والحركة، فتصاب الحياة بالعقم وتصبح كالماء الراكد الآسن، الذي يجعله الركود مرتعًا للجراثيم والميكروبات.

وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هدى الإسلام الصحيح، فرأينا كيف أغلق باب الاجتهاد في الفقه، وتوقف الإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في الصناعة، والافتنان في الحرب وغيرها، وضربت الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء وأصبح المثل السائر: ما ترك الأول للآخر شيئًا!

وليس في الإمكان أبدع مما كان! على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة ـ التي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي ـ تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تنمو وتتقدم، ثم تزحف غازية مستعمرة، والمسلمون في غمرة ساهون، وفي غفلة لاهون.

الثاني: أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث من أبناء المسلمين فئة يريدون خلع الأمة من

دينها، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور. يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ مِن الشريعة، والتحلل من الفضيلة، كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد (التطور).

إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب من عقائد وأفكار، وقيم وموازين، وأنظمة وتقاليد، ومثل وأخلاق، وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها؛ لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا، أما أن يصبح الدين خاضعًا لتقلبات الحياة وظروفها، يستقيم إذا استقامت، ويعوج إذا اعوجت، فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان: أن يوجهها ويحكمها لا أن توجهه وتحكمه، وأن يخضعها لمثله وهداه، لا أن تخضعه لواقعها وهبوطها.

ومن هنا نقول للذين يطالبون الإسلام أن يتطور: لماذا لا تطالبون التطور أن يسلم؟!! فالإسلام حاكم، والتطور محكوم عليه.

عبيد التطور لا يقفون عند حد:

ثم إن عبيد التطور لا يقفون عند حد، ولا يقبلون تنازلاً حتى يطالبون بثان وثالث، وسلسلة من التنازلات لا تتناهى! وهم إذا قبلوا الإسلام فإنما يريدونه إسلاماً من صنع أيديهم وأفكارهم!

إنهم يقولون: لا نأخذ بأقوال الأئمة ولا الفقهاء ولا الشراح والمفسرين، فإنها آراء بشر مثلنا، ولا نأخذ إلا من الوحي المعصوم.

فإن وافقتهم على ذلك ـ افتراضًا ـ قالوا: إنما نأخذ ببعض الوحي دون بعضه، نأخذ بالقرآن ولا نأخذ بالسنة! فإن فيها الضعيف والموضوع والمردود، أو نأخذ بالسنة المتواترة، ولا نأخذ بسنن الآحاد!

فإن سلم لهم ذلك قالوا في جراءة ووقاحة: القرآن نفسه إنما كان يعالج أوضاع البيئة العربية المحدودة، وشئون المجتمع البدوي الصغير، فلابد أن نأخذ منه ما يليق بتطورنا وندع منه ما ليس كذلك!!

فإذا قال القرآن: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ (١)، وإذا سمى لحم الخنزير (رجسًا) قالوا: إنما قال القرآن ذلك في خنازير كانت سيئة التغذية، أما خنازير اليوم فليست كذلك!!

وإذا قال القرآن في الميراث: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ (٢). قالوا: إنما كان ذلك قبل أن تخرج المرأة للعمل، وتثبت وجودها في ميادين الحياة المختلفة، أما اليوم فقد أصبح لها شخصيتها واستقلالها الاقتصادي؛ فلزم أن ترث كما يرث الرجل، ولم يعد مجال للتفرقة بين الجنسين!!

وإذا قال القرآن: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (٣). قالوا: إنما حرم القرآن ذلك في بيئة حارة، ولو نزل القرآن في بيئة باردة، لكان له موقف آخر!!

ومعنى هذا أنهم ينسبون إلى الله تعالى الجهل بأحوال خلقه، وأنه لا يعلم منها إلا ما هو واقع، وأما ما يخبئه الغد وما يضمره المستقبل، فلا يعلمه ولا يحسب حسابه، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

إن الإصلاح الحقيقي: أن نتفهم جيدًا ما يجب أن يتطور من شئون الحياة فنبذل جهودنا لتطويره وتحسينه، بمنطق الحكماء الشجعان، لا الأغرار المقلدين - والإسلام يشد أزرنا في ذلك بما أطلق فينا من قوى الفكر والعمل، وما شرع لنا من الاجتهاد والجهاد، وما أوجب علينا من التماس الحكمة أنى وجدت - نتفهم كذلك ما يجب أن يبقى ثابتًا راسيًا من القيم، والعقائد، والمفاهيم، والأخلاق، والآداب، والشرائع، التي تزول الجبال الشم ولا تزول.

بهذا الموقف الحكيم نواجهه التطور ونوجهه: نعيش عصرنا، ونرضي ربنا، فنفوز بالحسنيين، ونربح الدنيا، ولا نخسر الدين، ونظفر برضوان الله، وإعجاب العقلاء من الناس.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٣، والنحل: الآية ١١٥.
(٢) سورة النساء: الآية ١١
(٣) سورة المائدة: الآية ٩٠.

مكانة الإنسان في الإسلام

كتاب باسم (حضارة الإسلام) للمستشرق النمساوي الأصل ج١ . فون جرو نيباوم . . ترجمه الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ضمن مشروع (الألف كتاب) الذي تشرف عليه (إدارة الثقافة العامة) بوزارة التربية والتعليم .

وفي الكتاب أخطاء كثيرة عن الإسلام في عقيدته وتشريعه وحضارته وتاريخه ، وهو ما لا يمكن أن يخلو منه مستشرق لا يؤمن بالإسلام دينًا ، ولا بالقرآن وحيًا ، ولا بمحمد رسولاً ، فلابد أن يفسر هذا الدين وآثاره بما يلائم اعتقاده فيه .

وقد عقب الأستاذ المترجم على بعض هذه الأخطاء ، ولكنه أولاً : لم يستوعب ، وثانياً : لم يوف التعقيب حقه . . وثالثاً : فصل التعقيب عن أصله ، وجعله في آخر الكتاب .

ولسنا في مقام النقد للكتاب كله الآن ، وإما نكتفي بإيراد مثل من انحراف المؤلف عن السداد مما لم يعقب المترجم عليه .

قال في فصل (الإنسان الكامل) ص ٢٨٣ :

«والإسلام منذ بداءته لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير ، وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدي ؛ فيصف خلق الفرد وتكوينه تفصيلاً ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ ـ ١٤ .

فليس لإنسان أي فخر في بداياته؛ فهو ليس مكونًا من مادة مهينة فحسب، بل هو ضعيف عديم الحس، ساعة ينحدر إلى هذه الحياة ـ ولا يحفظه في وجوده المحفوف بالخطر إلا إرادة الله. . وهو غرض لسهام الأمراض والآلام، وهو يكابد الجوع والعطش شاء أم لم يشأ، وهو يريد المعرفة ولكن الجهل نصيبه، وهو يريد أن يتذكر ولكنه ينسى، وإنه ليدبر ما يدبر من خطط الفكاك ولا يبلغ قط حد الاطمئنان على الحياة أو المركز.

ويتأمل الغزالي أمره قائلاً: وما نهايته إلا الموت الذي يرده إلى خمود الحس المصاحب لبداياته، والذي يعرضه للتجيف الكريه المنفر». ا هـ.

وإن أدنى تأمل في مصادر الإسلام ليرد على المؤلف دعواه، أن الإسلام لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير، ويدحض استدلاله الواهن على ما ادعاه.

وقد اعتمد المؤلف في هذه النقطة ـ كما ذكر في مراجعه ـ على كلمات ذكرها الإمام الغزالي في كتاب (الكبر) من الإحياء. . ومثل هذه الكلمات التي ذكرها الغزالي لا تصلح معتمداً لتقرير مبدأ خطير يتعلق بمكانة الإنسان؛ فهو إنما ذكرها في بيان الطريق إلى معالجة الكبر، وفي مخاطبة المستكبرين، ولكل مقام مقال كما يقولون.

إنه يريد أن يذكر هذا المتكبر بأيام ضعفه يوم كان جنينًا في بطن أمه، بل حين لم يكن شيئًا مذكوراً؛ ليعلم أنه لا قيام له بذاته، ولا استغناء له عن ربه ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (١).

قال الغزالي بعد ذكر هذه الآيات (٢): ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتًا: ترابًا أولاً، ونطفة ثانيًا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال، فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى

(١) سورة الإنسان: الآيات ١ـ٣.
(٢) ص ٣٠٩ من كتاب الكبر، ربع المهلكات ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٤٦هـ.

طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(١)، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾(٢).

فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والخسة والقذارة ـ خسة التراب وقذارة النطفة ـ إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحيًا بعد الموت، وناطقًا بعد البكم، وبصيراً بعد العمى، وقويًا بعد الضعف، وعالمًا بعد الجهل، ومهديًا بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنيًا بعد الفقر، فكان في ذاته (لاشيء) وأي شيء أخس من لا شيء، وأي قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيئاً.

هذا ما ذكره الغزالي عن الإنسان فيما اقتضاه مقام معالجة الكبر والمتكبرين، وهو لا يثمر النتيجة التي انتهى المؤلف إليها.

ولو أنصف المؤلف لاستشهد بما ذكره الغزالي في مناسبات شتى، فيها مكانة الإنسان في الكون، وقيمته عند الله وخصائصه الروحية العالية، وحسبنا من ذلك ما ذكره في كتاب (المحبة) من ربع (المنجيات) من إحيائه؛ فهو بعد أن ذكر أن من أسباب المحبة المناسبة والمشاكلة؛ لأن شبيه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميل، قال (٣): وهذا السبب أيضًا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة، لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال، بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطر.

فالذي يذكر: هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله؛ وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من الصفات الإلهية.. من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكل ذلك يقرب إلى الله تعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب ـ من المناسبة الخاصة التي اختص بها

---

(١) سورة يس: الآية ٧٧. (٢) سورة الروم: الآية ٢٠.

(٣) ص ٢٦٣ من كتاب المحبة، ربع المنجيات

الآدمي - في التي يومئ إليها قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (١)، إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق.

وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(٢)؛ ولذلك أسجد له ملائكته.

ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾(٣)؛ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة.

وإليه يرمز قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» (٤) حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس، فشبهوا وجسموا وصوروا - تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام: «مرضت فلم تعدني، فقال: يارب وكيف ذلك؟! قال: مرض عبدي فلان فلم تعده، ولو عدته وجدتني عنده»(٥).

وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض، كما قال الله تعالى - يعني في الحديث القدسي -: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به. .»(٦) إلخ.

إن الآية التي استدل بها المستشرق - والتي بينت أطوار خلق الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة. . . إلخ - لا تهدف إلى إقناع الإنسان بمهانة أصله الجسدي - كما يقول - وإنما تهدف هي وما يماثلها من آيات إلى الرد على قوم أنكروا الآخرة والبعث بعد الموت، واستبعدوا أن يحيا الإنسان بعد ما رم وبلي، فجاءت هذه

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥. (٢) سورة ص: الآية ٧٢.

(٣) هذه الآية من سورة (ص) الآية (٢٦) في شأن داود عليه السلام، والأولى من سورة البقرة الآية (٣٠) ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهي في شأن أبي البشر عليه السلام، وأعتقد أن الغزالي يقصد إليها.

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤١/٢٨).

(٥) رواه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٦٩)، وانظر: صحيح الجامع الصغير ١٩١٦.

(٦) رواه أحمد في مسنده بهذا اللفظ من حديث عائشة رضي الله عنها ٦/ ٢٥٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٠ فيه عبد الواحد بن قيس بن عروة، وثقه أبو زرعة والعجلي وابن معين في إحدى الروايتين وضعفه غيره، وبقية رجاله الصحيح.

الآيات تلفت أنظار منكري النشأة الأخرى إلى النشأة الأولى، وتنبه العقول الغافية إلى قدرة الله الكبير الذي خلق الإنسان من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[١]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾[٢].

فهل يفهم منصف من سياق هذه الآيات تحقير الإنسان؟ وأن الإسلام لا يعترف له إلا بقليل من التقدير؟

لقد عني القرآن بالحديث عن الإنسان في عشرات من آياته، وعشرات من سوره، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي استقبله قلب رسول الله ـ وهي خمس آيات ـ لم تغفل شأن الإنسان، وعلاقته بربه: علاقة الخلق والإيجاد، وعلاقة التعليم والهداية، واختارت الآيات لفظ (الرب) لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣].

بين القرآن في كثير من آياته علاقة الإنسان بالله، وهي علاقة القرب القريب، الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٤]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[٥]، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٦]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٧].

وبين القرآن مكانة الإنسان عند العوالم الروحية العلوية، وهي مكانة إشرأبت إليها أعناق الملائكة، وتطاولت إليها نفوسهم فما بلغوها: مكانة خليفة الله في الأرض ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٨]. مكانة من علمه الله الأسماء كلها،

---

(١) سورة مريم: الآيتان ٦٦، ٦٧.
(٢) سورة يس: الآيات ٧٧ـ٧٩
(٣) سورة العلق: الآيات ١ـ٥.
(٤) سورة ق: الآية ١٦.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٦.
(٦) سورة البقرة: الآية ١١٥.
(٧) سورة الحديد: الآية ٤.
(٨) سورة البقرة: الآية ٣٠.

وأمر ملائكته بالسجود له تحية وإجلالاً ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ . . . ﴾ (١).

وكانت عاقبة عدو الإنسان الذي تمرد على أمر ربه بتحيته والسجود له هي اللعنة والطرد الأبدي قال: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾(٢).

وبين القرآن مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض، وهو مركز السيد المتصرف، الذي سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ (٣).

وما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة في الكون ـ على ما فيه من أجرام ضخام ـ؟ إنه استعداده لحمل الأمانة الكبرى: المسئولية . . التكليف، تلك المسئولية التي صورها القرآن تصويراً أدبيًا رائعًا فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ (٤) تلك المسئولية التي جعلت مصير كل إنسان بيده، إما إلى جنة وإما إلى نار ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (٥)، ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (٦).

ذلك بعض ما ذكره القرآن عن مكانة الإنسان، وإن فيه لغناء لمن أراد الإنصاف، وحسب الإنسان شرفا هذان النداءان المباشران من الله إليه بعنوان الإنسانية: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٧)، ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾(٨).

---

(١) سورة ص: الآيات ٧١ـ٧٤.
(٢) سورة ص: الآيتان ٧٧، ٧٨.
(٣) سورة إبراهيم: الآيات ٣٢ـ٣٤.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٧٢
(٥) سورة القيامة: الآية ١٤.
(٦) سورة الإسراء: الآية ١٥.
(٧) سورة الانفطار: الآيات ٦ـ٨.
(٨) سورة الانشقاق: الآية ٦.

حوار
في قضايا فكرية
مع التيارات الوافدة

لابد من مقياس نحتكم إليه

كنت أتحدث مع صاحبي عن ضرورة العودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة، وقيمًا وأخلاقًا، وثقافة وحضارة؛ لنسعد في دنيانا، ونفوز في أخرانا، فإذا هو يقول في صراحة: الحقيقة يا صاحبي أننا في حيرة وبلبلة أمام الدعوات والمبادئ الكثيرة المختلفة، هذه تجرنا إلى اليمين، وتلك إلى اليسار، هذه تشرق وأخرى تغرب، أنت تدعو إلى الإسلام، وثان يدعو إلى القومية، وآخر إلى الاشتراكية.

دعاة الإسلام منهم المتزمت والمتسامح، ودعاة القومية منهم من يوسع ومن يضيّق، ودعاة الاشتراكية منهم من يتطرف ومن يعتدل.

وكل واحد من هؤلاء يضفي على سلعته أجمل الأوصاف، ويبرئها من كل عيب، والقارئون والمستمعون حائرون إزاء ما يقرءون من كتب ورسائل ومقالات، وما يسمعون من محاضرات وأحاديث ومناقشات، فقل لي بربك: ماذا يصنع الإنسان أمام هذه المبادئ والأفكار؟ وهذه التيارات من يمين ويسار؟

قلت: وماذا يفعل الناس إذا اختلفوا في طول قطعة من القماش، أو في ثقل مقدار من الحلوى، أو في حجم كمية من القمح؟

قال صاحبي: إنهم يحتكمون إلى معيار اتفقوا عليه، كالمتر مثلاً في قياس الأبعاد والأطوال، والكيلو جرام أو الرطل في تقدير الموزونات، واللتر والقدح في تقدير المكيلات.. إلخ، فيرتفع الخلاف، وينحسم النزاع.

قلت: وهذا ما يجب أن نصنعه أيضًا في الأمور المعنوية، أعني لابد من معيار نتفق عليه ونحتكم إليه، في أفكارنا وآرائنا وقيمنا، فإذا أمرنا جميع، وإذا كلمتنا سواء.

قال صاحبي: ولكن المشكلة هنا فيمن يصنع هذا المعيار العجيب الذي توزن به

الأقوال والمذاهب، وتقاس به النحل والمعتقدات، ويعرف به الرشد من الغي، والهدى من الضلال، من الذي يدعي القدرة على وضع هذا المعيار؟ ومن يرضى به إذا ادعى ذلك؟

قلت: أما نحن المسلمين فإن هذا المعيار في أيدينا فعلاً، وليس هو وضع بشر، فالبشر أعجز من أن يضعوا مثل هذا المعيار. إنه معيار منزل من السماء إلى الأرض، من الخالق إلى الخلق ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (1). «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنتي»(2). بل إنه من مهمة الرسل الأساسية أن يضعوا هذه المعايير للبشر، ليحتكموا إليها إذا اختلفوا، ويرجعوا إليها إذا انحرفوا، وفي القرآن الكريم «﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾(3) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(4).

ولكن العجيب أننا لا نحتكم إلى هذا المعيار السماوى، إلى الإسلام الذي أكرمنا الله به، ورضيه لنا دينًا، بل نبذناه وراءنا ظهريًا، وطفقنا نلتمس الفتوى والحكم من غيره، «ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله» (5).

قال صاحبي مندهشًا: أيلزمنا أن نحتكم في كل أفكارنا وآرائنا إلى الإسلام والقرآن؟

قلت: نعم، بمقتضى إسلامك إلى الله، وإلى رسوله، فهذا معنى (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) فإن رضاك بالله ربًا، وبمحمد رسولاً، وبالقرآن إمامًا، يقتضيك الاحتكام إلى الله ورسوله وكتابه، فيما يشكل عليك، وفيما تنازع

---

(1) سورة هود: الآية 1.
(2) رواه مالك في الموطأ 2/ 899، وله شواهد أخرى ذكرها الألباني في سلسلة الصحيحة 4/ 355 (1761).
(3) سورة البقرة: الآية 213.
(4) سورة الحديد: الآية 25.
(5) جزء من حديث رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب في كتاب فضائل القرآن (2906) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. ولكن المعنى صحيح

الناس، أو ينازعونك فيه، ولا يصح بغير هذا إيمان أبداً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(1). ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(2).

قال صاحبي: وهل معنى هذا أن نحتكم إلى ما أنزل الله في كل أمورنا، حتى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؟ لا بأس بالاحتكام إلى ما أنزل الله في شئون الدين، أعني في العقائد والعبادات والأخلاق، أما شئون الحياة المتغيرة المتطورة، فلماذا لا نحكم فيها منطقنا البشري، أو نقتبسها من تجارب غيرنا؟

قلت: إن تجزئة ما أنزل الله: إلى ديني، وغير ديني، تجزئة مضللة، ولا تقوم على أساس سليم. أتريد منا أن نطيع الله سبحانه إذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(3)؛ لأن الصلاة من شئون الدين؛ فإذا قال: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(4) قلنا له: عفواً يارب، هذا من شئون المال والدنيا، فدعنا ندبرها وحدنا دون هدايتك ووحيك يا ربنا!!

وإذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾(5) قلنا له: سمعنا وأطعنا؛ فإذا قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(6) قلنا له: سمعنا وعصينا.. إن تحريم الخمر يا رب خطر على نشاط السياحة، وحجر على حرية الفرد، فدعنا أحراراً في تناولها.

وإذا قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾(7) قلنا: يا لها موعظة! فإذا قال قبلها بآيتين: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(8) قلنا: أما هذه فلا، فإن عصرنا لا يستغني عن الربا؟ وعجلة الاقتصاد لا تدور إلا بالفوائد الربوية.

---

(1) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.
(2) سورة النساء: الآية ٦٥.
(3، 4) سورة المزمل: الآية ٢٠.
(5) سورة فصلت: الآية ٦.
(6) سورة المائدة: الآية ٩٠.
(7) سورة البقرة: الآية ٢٨١.
(8) سورة البقرة: الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩.

وإذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[1] قلنا: سمعًا وطاعة؛ فإذا قال في نفس السورة، ونفس السياق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[2] قلنا: هنا لا سمع ولا طاعة، فأمر العقوبات لنا يارب وليس لك، فدعنا نقرر فيها ما نراه، فنحن أعلم بمصلحتنا منك!!

لا يا صاحبي! إن كل ما أنزل الله دين يجب أن يتبع ويرعى وينفذ، وإهمال بعضه ضار بمجموعه، وهو أشبه شيء بوصفه الطبيب الماهر للمريض، إنها مجموعة متكاملة من الأدوية، ربما كان حذف دواء منها يجعل ضرر الأدوية الأخرى أكبر من نفعها؛ ولهذا حذر الله سبحانه من ترك بعضٍ ما أنزله من كتاب وحكمة، انخداعًا بتزيين أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة والمشركين. قال تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [3]، فحذر من الفتنة عن بعض الأحكام المنزلة من الله، وقد ذم الله قومًا من المنافقين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وسول لهم الشيطان وأملى لهم، فقال في تعليل ما أصابهم من سخطه ولعنته: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [4].

قال صاحبي: كلامك صحيح، ولكن ليس كل الناس مسلمين، حتى يحتكموا إلى معيار الإسلام، ويحكموه فيما شجر بينهم.

قلت: أما غير المسلمين فلهم حديث غير هذا، ولكني أتحدث مع الذين رضوا بالإسلام دينًا، ولا زالوا يعلنون أنهم مسلمون، وهم ينزلون على أحكام الإسلام. أتحدث مع هؤلاء الذين يقرءون ويسمعون قول الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [5]، ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [6].

---

(1) سورة البقرة: الآية ١٨٣.
(2) سورة البقرة· الآية ١٧٨.
(3) سورة المائدة: الآية ٤٩.
(4) سورة محمد: الآية ٢٦.
(5) سورة الشورى: الآية ١٠.
(6) سورة النساء. الآية ٥٩.

أتحدث مع هؤلاء الذين قرءوا في كتاب ربهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١)، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢)، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣).

وأحب أن تعلم أن هذه الآيات ليست في شأن الحكام والقضاة فحسب، بل إنها تشمل كل من حكّم في تفكيره وسلوكه مذهبًا غير الإسلام، وكتابًا غير القرآن، وموجهًا غير محمد عليه الصلاة والسلام.

فليختر له أحد هذه الأوصاف الثلاثة أو كلها إن شاء، الكفر والظلم والفسق، كما صرحت بها آيات ثلاث في كتاب الله.

ولو كان سهمًا واحدًا لاتقيته ... ولكنها سهم وثان وثالث!

(١) سورة المائدة. الآية ٤٤.
(٢) سورة المائدة: الآية ٤٥.
(٣) سورة المائدة: الآية ٤٧

مذاهب .. أم عقائد وأديان جديدة؟!

قال صاحبي: رضينا بالإسلام مقياسًا لأفكارنا وقيمنا، وبالقرآن حكمًا في كل شئوننا، فما يقول الإسلام في هذه المذاهب والدعوات (الأيديولوجية) الحديثة، التي نشط دعاتها في هذه الآونة، والتي تحمل طابع التجديد والتحرير والبعث والتقدم والثورية؟ هل يتسع صدر الإسلام لهذه الأيديولوجيات، ويعقد معها عقد تعايش سلمي؟ أم يرفضها وينكرها ويأبى معايشتها، هل يجوز للجماعة أو للفرد المسلم أن يعتنق أحد هذه المذاهب ويسترشد بها ويجعل نفسه داعية إليها؟ وبخاصة ما يعرف الآن باسم (الاشتراكية الثورية).

قلت: لقد سألت عن أمر خطير يجب على كل مسلم أن يحدد موقفه منه، كما يجب على كل عالم مسلم أن يبين حكم الله ورسوله فيه بلا مواربة ولا مداهنة.

ولن أناقش الآن مضمون هذه المذاهب والدعوات وما تحتويه من أفكار ونظريات وقواعد صحيحة أو باطلة، فإن المناقشة الموضوعية لكل مذهب أو فكرة منها لها مكان آخر. ولكن هنا أناقش الشكل والجوهر العام لهذه المذاهب جميعًا.

إن هذه المذاهب والأيديولوجيات في حقيقتها أديان جديدة، أديان تنكر مضمون الدين، ولكنها تتخذ شكله. إنها تسخر من كل ما جاء به الدين من الغيبيات، ومن عقلية المتدينين وإيمانهم الدافق الحار، ولكنها في نفس الوقت تأخذ كل خصائص الدين!

ما هي خصائص الدين؟

إنها الثورة على الأفكار والقيم الجاهلية القديمة والتخلص منها.

إنها الإيمان بمجموعة من الأفكار لا تقبل المناقشة في صحتها، وبمجموعة من القيم لا تقبل الشك في عدالتها. إنها إخلاص للفكرة لا يقبل الشركة، وولاء لا يقبل المزاحمة، واعتزاز لا يقبل المهادنة أو المداهنة، وتضحية لا تقبل الإحجام، وثبات لا يقبل الردة.

هذه أهم خصائص الأديان (التقليدية)، وهذا ما تريده من المؤمنين بها، وهذا أيضًا ما تريده الأيديولوجيات العلمانية الانقلابية الحديثة من أنصارها.

إنها جميعًا تعتبر الدين هو الجاهلية التي يجب التحرر من ربقتها، وأفكاره وقيمه ومثله، إنما هي أمور (رجعية) بالية يجب التمرد عليها، ووزنها بميزان الفكرة الجديدة، فما كان منسجمًا معها؛ قبل بقاؤه تابعًا للأيديولوجية وخادمًا لمقاصدها، وما لم يكن كذلك؛ (شطب) عليه بالقلم الأحمر.

إن هذه الأيديولوجيات لا ترضي لنفسها أن تأخذ جانبًا من الحياة أو المجتمع لتصلحه أو تطوره. . كلا، إنها تتسم بطابع الشمول والإطلاق والكلية، كالدين تمامًا؛ ولذا فهي تريد تغييرًا جذريًا، وتحولاً ثوريًا، يحطم القديم، ويعدل المفاهيم، ويضع للناس قيمًا جديدة، وأخلاقًا جديدة، ومفاهيم جديدة، وأنظمة جديدة.

يقول أحد الدارسين لهذه الأيديولوجيات والموالين لها في صراحة، وبعد شرح وتفصيل: «هكذا تجد الأيديولوجيات الانقلابية نفسها مضطرة ـ إن أرادت تحقيق حركة انقلابية متكاملة أن تعمل على تحويل المجتمع إلى جمهور، أي إلى أفراد خسروا جذورهم وتقاليدهم، وأن تنقض ـ مبدئيًا وأساسيًا ـ التراكيب الاجتماعية السائدة، وأن تساعد كل حركة أو موقف هدام يساهم في تمزيق عراها، وأن تدعم كل تغيير يؤدي إلى اقتلاع جذور التقاليد والنظم والقيم التقليدية، وعندما تصل إلى السلطة وتتسلم زمام الدولة، تعمل بجميع الوسائل السياسية، وجميع ما يتوافر لها من وسائل تكنولوجية وعلمية، على تحقيق تهديم التراكيب والنظم والعلاقات الاجتماعية تهديمًا عامًا؛ لأن الفرد يستطيع أن يتحول إلى الأيديولوجية الجديدة، فيصبح انقلابيًا إن هو خسر روابطه بها (أي القيم والنظم القديمة) من كتاب الأيديولوجية الانقلابية تأليف د. نديم البيطار.

ولقد سمى بعض الباحثين هذه الأيديولوجيات (الأديان العلمانية) أو (الأديان الملحدة) أو (العلمانية الدينية)، وألف فيها جوليان هكسلي كتابه (دين بغير وحي)!

ولقد كان دعاة هذه المذاهب والأفكار صرحاء حين أطلقوا عليها اسم «العقيدة»؛ ولهذا يقولون: (العقيدة الاشتراكية) (العقيدة الشيوعية، العقيدة النازية، العقيدة البعثية، العقيدة القومية)، و(العقيدة) تعبير ملطف لمفهوم (الدين)

ولو أردنا صراحة أكثر لقلنا : الدين الاشتراكي، والدين البعثي ·
القومي . . . إلخ .

ومن الكتَّاب من يحاول تفسير هذه العقائد تفسيراً يحببها إلى جمهرة المتدينة ؛ فالاشتراكية ـ مثلاً عنده ـ مجرد مذهب اقتصادي ينسبه إلى إنسانية، توجب تدخل الدولة لتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ؛ معين، ولكن كتَّاب الاشتراكية الصرحاء لم يرضوا بهذا التوفيق بل وصوروها على أنها عقيدة شاملة تنتظم كل شئون الإنسان والحياة، فطرية و

يقول الدكتور منيف الرزاز ـ الذي انتخب أميناً لحزب البعث الاشتراكي لعدة سنوات ـ في كتابه (دراسات في الاشتراكية) الذي صدر سنة ٩٦٠ فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي فحسب، هو فهم خاطىء، فالاشتر حلولاً اقتصادية لمسائل كثيرة، ولكن هذه الحلول جميعًا ليست إلا ناحي من نواحي الاشتراكية، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاط إلى الأعماق، ولا يتعرف إلى الأسس التي تقوم عليها الاشتراكية، ولا ي الآمال البعيدة التي تذهب إليها الاشتراكية .

فالاشتراكية مذهب للحياة، لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد فيما الاقتصاد والسياسة، والتربية والتعليم، والاجتماع والصحة، والأخلاق والعلم والتاريخ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها، وأن تكون اشتر أن يكون لك فهم اشتراكي لكل هذا الذي ذكرت، وأن يكون لك كفاح يضم كل هذا الذي ذكرت» .

ثم يؤكد الكاتب أن هذه النظرة الشاملة ليست مقصورة على الاشتراك هي الأساس في المذاهب الاجتماعية الأخرى .

ولقد برر الكاتب شمول المذاهب الاجتماعية واتساع نطاقها بحيث جميع المجالات وأن تضع الحلول لجميع المشكلات بأن : « . . سبب ه الشاملة ـ أن الحياة نفسها شيء واحد ـ تيار واحد لا يعرف هذا التقس يخترعه عقلنا ؛ لكي يسهل على نفسه إدراك حقائق الحياة، ثم ينسى أنه الذي قام بهذا التقسيم، ويظن أن الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل .

لاتعرف شيئًا اسمه الاقتصاد منفصلاً عن شيء اسمه الاجتماع، وشيء آخر اسمه السياسة. الحياة شيء متكامل متصل، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس، لن يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس، إذا واجه الحياة ككل قائم بذاته، فهو مضطر إلى أن يقسم الحياة إلى أوجه، وإلى ألوان، وإلى أنواع من العلاقات، فيسمى بعضها اقتصاداً، ويسمى بعضها الآخر سياسة، وبعضها اجتماعًا، وأخلاقًا، ودينًا، وتاريخًا، وأدبًا، وعلمًا، إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها آخر . . . الحياة . . كالنهر شيء واحد متصل مستمر . . وكذلك حياة أي مجتمع، كبيراً أو صغيراً، أمة أو أسرة، حكومة أو حزبًا، فموقف أي مجتمع إزاء الحريات السياسية يقرر موقفه من الاقتصاد، وموقفه من النظم الاقتصادية، يقرر موقفه من الحريات السياسية، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق ومن التعليم ومن الأدب ومن التاريخ إلى آخر هذه السلسلة التي لا تنتهي».

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكية فيقول: «. . . بهذا المعنى تصبح كلمة الاشتراكية إذن كلمة لا تقتصر على التغيير من حالة اقتصادية معينة فحسب، بل هي تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها، والاشتراكية بهذا المعنى ليست وضعًا اقتصاديًا معينًا، وليست سعيًا في سبيل وضع اقتصادي معين فحسب، بل هي فهم اشتراكي لكل نواحي الحياة، وحين أقول بأنني اشتراكي، فقد عينت موقفي لا من العلاقات الاقتصادية التي أعيش من خلالها فحسب، بل لقد عينت موقفي من جميع نواحي الحياة التي تلامسني وألامسها».

وعلى هذا المنهج نفسه مشى كتاب (الدعوة الاشتراكية) في مصر في العهد الناصري، فأعلنوها عقيدة شاملة تنظم حياة الإنسان كلها، توجه فكرته وسلوكه وفلسفته للوجود والتاريخ.

فهذا كمال الدين رفعت (أمين الدعوة والفكر) في الاتحاد الاشتراكي العربي، والذي اعتبرت كلماته في هذا الوقت بمثابة (الفتوى الرسمية) من جهة الاختصاص المسئولة.

يقول في مقال نشرته جريدة الأخبار في ١٨/ ٣/ ١٩٦٢م: «الاشتراكية ليست نظامًا محدداً، بمعنى أنها ليست مثلاً مجرد نظام اقتصادي أو نظام اجتماعي أو نظام سياسي، ولكنها في تقديري عبارة عن فلسفة تجمع نواحي الحياة كلها، ومن

الخطأ أن نأخذ الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي أو نظام سياسي أو نظام اجتماعي، فمجموع هذه المعاني فيما بينها هي التي تكمل بعضها وتقيم الفكر الاشتراكي أو النظام الاشتراكي».

ويؤكد الدكتور جمال سعيد هذا المعنى في كتابه (الاشتراكية العربية ومكانها في النظم الاشتراكية): «إنها ـ أي الاشتراكية العربية ـ تتميز لا كحركة اقتصادية فحسب، ولكنها تتميز كنظام ومذهب إنساني وأسلوب للحياة يهدف لإقامة مجتمع جديد، إنها ليست مجرد نقل ملكية وسائل الإنتاج من الأفراد إلى الدولة أو المجتمع، وليست مجرد سيطرة على الاقتصاد القومي وتوجيهه لصالح المجموع، وليست مجرد إصلاح اجتماعي أو اقتصادي، ولكنها تتعدى كل هذا إلى نطاق الحلول النظرية والعملية لمشاكل الفرد والمجتمع، إنها عملية بناء لمجتمع تؤمن فيه كل الضمانات، مجتمع الكفاية والعدل، مجتمع العمل وتكافؤ الفرص، مجتمع الإنتاج والخدمات».

وفسر بعض الكتاب العرب ما الذي يعنيه أن تكون (الاشتراكية مذهبًا للحياة) (وأسلوبًا لها) أو (فلسفة تجمع نواحي الحياة كلها) فقالوا: «إن معنى هذا أن تتناول الاشتراكية حياة الإنسان بكاملها؛ لأنها فلسفة كاملة إزاء مشكلة الكون ومشكلة الوجود».

ومما قيل في هذا الشأن: «إن الاشتراكية العربية نظرية ثورية كاملة، وأنها كذلك لا تحدد علاقة الإنسان بالمجتمع فقط، ولكنها تتناول حياته كاملة، وهي تكون فلسفة كاملة إزاء مشكلة الكون ومشكلة الوجود، والإنسان لا يعيش بالخبز وحده، ولا يكتفي بحل مشكلة حياته مع الناس، بل هو يتطلع لحل مشكلة وجوده ومعرفة مصيره. . والنظرية الاشتراكية لا تقدم حلاً لمشكلة الخبز أو مشكلة الحرية، ولكن مشكلة الوجود عامة» (١).

قال صاحبي: ولكن ألسنا نسمع هؤلاء كثيراً ما يصرحون أنهم يحترمون الدين أو على الأقل، لا يقفون ضده، فكيف نفسر هذا وهم يعتنقون فكرة أو عقيدة أخرى شاملة للحياة كلها شمول الدين؟

---

(١) نقل ذلك الأستاذ محمد عصفور المحامي في بحث له ـ آخذا عن الصحف والمجلات المصرية.

قلت: نعم قد يعلن بعض أصحاب هذه العقائد والأيديولوجيات أنهم لا يعادون الدين ولا يكفرون به، ولكن ما هو الدين الذي لا يعادونه؟ إنه ليس وحيا أنزله الله ليحكم عباده، ويقولون عنده: سمعنا وأطعنا؛ لأنهم لا يقولون ذلك أبدًا، إنما هو شيء يسمى (التراث الروحي) أو (التقاليد) أو (المثل العليا) للأمة، إلى غير ذلك من العبارات المائعة المطاطة التي لا تغني من الحق شيئًا. إن الدين الذي يعترف به هؤلاء هو الدين الذي ينحني لهم، ويمشي في ركابهم، ويسبح دعاته بحمدهم، ويخدم عقائدهم وأفكارهم؛ ولهذا يفتضح نفاق هؤلاء ويبرز عداؤهم للدين سافرًا، حين يتعارض الدين مع شيء من مبادئهم وخلقهم.

إنهم حينئذ يدوسون الدين ويعلنون الحرب عليه وعلى دعاته، تارة بحملات التشهير والتشنيع والتضليل، وطورًا بحملات التقتيل والتعذيب والتشريد، فهم يريدون دينًا (مستأنسًا) دينًا يقوم بمهمة الخادم المطيع، لا الآمر المطاع، أما الدين الحق، فإنهم بعيدون عنه بُعد ما بين السماء والأرض.

إن فكرة هؤلاء عن الوجود غير فكرة الدين، ونظرتهم إلى الحياة غير نظرة الدين، وإنسانهم ليس هو إنسان الدين، ومثلهم الأعلى ليس مثل الدين. إن معبودهم في الحقيقة هو المادة، وجنتهم في الواقع هي الرفاهية، وأخلاقهم هي النفعية.

إن ما يغالي به الدين من تقوى الله وخشيته والتوكل عليه والخشوع له والإنابة إليه، والتذلل بين يديه، والرجاء في جنته، والخوف من عذابه، تعد كلها في نظر هؤلاء (التحرريين) (الثوريين) أخلاقًا (رجعية) لا يسمح لها بالبقاء.

إن هذه الأيديولوجيات لا يمكن أن ترضى في مجتمعاتنا عن هؤلاء الناس الذين خلع عليهم القرآن وصف المتقين ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[1]، ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2]،

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٦، ١٧.

(٢) سورة الفرقان. الآيات ٦٤-٦٦.

فلا يغرنك ما تسمع أو تقرأ لهؤلاء عن إيمانهم بالدين أو عدم عداوتهم له، فإنما يقولون ذلك ـ عند الحاجة ـ مداهنة للجماهير المتدينة، وكسبًا لقلوبها وانتظاراً للفرصة التي تمكنهم من عنق الدين، فهو من باب (تمسكن حتى تتمكن).

هذا شأن أيديولوجية ثورية مع أي دين، ولعل من المفيد هنا أن أضرب لك مثلاً بما حدث في ألمانيا وإيطاليا بين النازية والفاشية وبين الدين المسيحي؛ لتعرف منه ما يجري وما يمكن أن يجري هنا في بلادنا بين الإسلام والدعوات الثورية الجديدة، وأنا في هذا ناقل لا مستنتج.

لقد أرادت النازية والفاشية جعل الدين خادمًا يأمر بأمر الأيديولوجيات الانقلابية؛ ففي كل منهما حملت الأيديولوجية (مطلبًا جديداً، يسود كل شيء ويجعل كل شيء يقف موقفًا ثانويًا بالنسبة إليه، كما يتضح ذلك كل الوضوح في كتابات الحركتين، وفي النازية على الأخص.

ولقد وقعت معاهدة بين الكنيسة وبين الحكومة النازية عام ١٩٣٣م، بعد أن كان من المستحيل الارتباط بها؛ لأن البلاد ـ أي بلاد ـ لا تتسع لإيمانين مطلقين.. لهذا لم يكن من السهل على تلك المعاهدة أن تسدل ستاراً على الحرب الفاشية بين الجهتين، بالرغم من المحاولات العديدة التي كان يبذلها الطرفان لإبقائها خفية.

كان الجيل الألماني ينشأ ـ نتيجة للدعاية النازية ـ على الاعتقاد بأولوية الأمة، وبأن الدولة هي أهم وأكبر قيمة من أي دين، وأن الولاء للأمة والدولة هو أهم شيء ويتقدم على أي ولاء ديني آخر (تأمل).

كان هتلر حذراً جداً في مناهضته ومقاومته للدين بشكل علني (تأمل جيداً)، ولكنه أعطي مفكري الحزب الحرية في التعبير عن مناهضتهم ومقاومتهم.

رسم «روزنبرغ» فيلسوف النازية صورة واضحة عن موقف النظام الجديد من الدين بمثل قوله: عندما يضع الاشتراكي القومي قميصه الحزبي، ويصبح جنديًا من جنود هتلر؛ يمسى دينه إيمانه بزعيمه.

أما «كنوث» فقد كتب: إن المسيحية من البقايا البائدة لثقافة منحلة عفى عليها الزمان.

لقد كانت عداوة النازية والفاشية للدين غامضة أول الأمر، وذلك لمحاربتها الشيوعية الصريحة الإلحاد، وهذا ما خدع الكثيرين، وجعل عدداً كبيراً من قادة

الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية يقف إلى جانبهما؛ لأنهم رأوا فيهما معنى جديداً للدين، ولكن كان الأمر على عكس ذلك تماماً، فقد اتبعتا في بادئ الأمر سياسة بعيدة كل البعد عن إلحاديّة الحركة الشيوعية، وما لبث أن تبين للمراقبين أنهما ما قبلتا وجود الدين وبقاء الكنائس إلا كأداة في خدمة مقاصدهما العقائدية الجديدة؛ لهذا نرى الصراع يذر قرنه رأساً بينهما وبين الدين عندما يحاول الأخير التمسك بأي شيء يتنافي مع المذهب الجديد.

قد تفرض الاعتبارات الإستراتيجية السياسية على الحركات الانقلابية ـ كما فرضت على الفاشية والنازية وإلى حد ما على الشيوعية ـ أن تحقق بعض التسويات مع الأديان السائدة، ولكن هذا التكتيك لا يمكن له أن ينسجم طويلاً مع قاعدتها الأساسية المنافية للدين؛ فشمول هذه الانقلابات لابد له من الخصام مع الدين، الذي يزعم لنفسه الشمول ذاته؛ فليس هناك من تسوية ممكنة بين الطرفين، وكل تسوية تحدث لا تخرج عن كونها هدنة مؤقتة في طريق المعركة النهائية، التي يجب أن تنتهي بالنصر التام لأحدهما، فالأيديولوجية الانقلابية تمثل ديناً جديداً ينافس الأديان السابقة في تملك نفوس الناس؛ ولهذا فإن حياتها ذاتها ترتبط بالنصر النهائي الذي تستطيع أن تسجله ضد الأديان (١).

هل يمكن بعد هذا كله، لدين محترم أن يقبل معايشة هذه المذاهب، بل الأديان الجديدة؟ وكيف وهي نفسها لا تقبل معايشته، ولا تسمح بوجوده إلا خادماً أو تابعاً أو أداة؟.

إن السؤال الأصلي يسقط من نفسه إذا حورناه بهذه الصورة: هل يجوز للفرد المسلم أو المجتمع المسلم أن يعتنق ديناً جديداً كالاشتراكية أو القومية العلمانية؟

إن الجواب لاشك واضح ومعروف.

وصدق الله العظيم: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾(٢)، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣).

---

(١) من كتاب: الإيدلوجية الانقلابية: تأليف د. نديم البيطار من ص ٧٤٢-٧٤٦ بتصرف
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤ (٣) سورة آل عمران الآية ٨٥.

قال صاحبي: بعد أن اتضح لنا الموقف من المذاهب والفلسفات الجديدة التي غدت (أديانًا بغير وحي) أريد أن أعرف رأيك في هذه القومية؟

قلت: أي قومية تعني؟ القومية التركية الطورانية، أم القومية السورية الفينيقية، أم القومية المصرية الفرعونية، أم القومية العراقية الآشورية، أم القومية البربرية المغربية، أم القومية الكردية الـ . . .

وهنا قاطعني صاحبي قائلا: أعوذ بالله من تلك القوميات الضيقة التي تمزق شمل الأمة العربية، وتفتت كيانها، وتخلق الحواجز بينها، أنا لا أعني إلا القومية العربية.

قلت: تعني أن القوميات منها ما هو حلال طيب، ومنها ما هو حرام خبيث، فإذا كانت القومية سورية كالتي دعا إليها أنطون سعادة في سوريا ولبنان، أو فرعونية كالتي دعا إليها أمثاله في مصر، أو كردية كالتي يدعو إليها آخرون في العراق، أو بربرية كالتي اختلقها المستعمرون الفرنسيون في المغرب، فكل هذه قوميات حرام، أما إذا كانت القومية عربية كالتي يدعو إليها الخواجات م.ع.و.ج.ح.و.ق.ز. وغيرهم فهذه قومية حلال زلال، لا لغو فيها ولا تأثيم!

لابد أن نتفق أولاً على مبدأ القومية وشرعيته: هل هو حق أم باطل؟ رشد أم غي؟ هل يقبل كله؟ أم يرفض كله؟ أم يؤخذ منه ويترك؟

قال صاحبي: هذا صحيح.

قلت: وقبل ذلك، يلزمنا أن نتفق على مفهوم كلمة (القومية) ومدلولها، والمراد بها، أما إصدار حكم على شيء قبل تحديد مفهومه، والمراد به، تحديدًا دقيقًا، فهو تسرع وتهور لا يليق بالعقلاء، وقديمًا قال أهل المنطق: الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

قال: وهذا صحيح أيضًا.

قلت: (القومية) لفظة منسوبة إلى (القوم) وقوم الرجل في الأصل هم عشيرته

الذين تربطهم به رابطة الدم والنسب، كما هو واضح من استعمال القرآن لكلمة (قوم) في سياق إرسال الرسل إلى قومهم، ولكن الأنساب والسلالات الآن توزعت في الأرض وتفرقت، فلم تكد تبقى أمة صافية العنصر، خالصة النسب، وهذا ما جعل دعاة القومية يضطرون في وضع تعريف معين لها، وفي بيان المقومات الأساسية التي بها تتكون الأمة: هل هي الأرض؟ أم السلالة؟ أم الدين؟ أم اللغة؟ أم التاريخ؟ أم المصلحة؟ أم مجرد الإرادة، أي إرادة قوم أن يعيشوا معًا؟ على أن دعاة القومية في الوطن العربي، قد أغفلوا الدين باعتباره أساسًا للتجمع القومي، وإنما هم بين معتمد على الرابطة الطينية الأرضية كدعاة القومية السورية، ومعتمد على الرابطة العنصرية كدعاة القومية الكردية والبربرية، ومعتمد على الرابطة اللغوية والتاريخية كدعاة القومية العربية.

ومهما يكن الأساس الذي تبنى عليه القومية، فماذا تعني الدعوة إليها؟ (إن كانت تعني أن يحب الرجل قومه، ويسعى إلى خيرهم ورقيهم ونهضتهم ويبذل كل ما في وسعه لمجدهم وعزتهم، فهذا أمر مشروع يباركه الدين ويؤيده ويدعو إليه)، وإن كانت تعني أن يتحد القوم صفًا واحدًا في قضاياهم، ويتعاونوا على البر والتقوى، فنعمت القومية هي، وإن كانت تعني التكتل ضد هجمات الغاصبين، وعدوان المعتدين، فمرحى ثم مرحى.. (وإن كانت تعني تحرير الوطن من احتلال أعدائه، والنهوض به في جميع مرافقه، فمرحبًا بها وأهلاً، وإن كانت تعني...).

قال صاحبي: وهل تعني القومية أكثر من هذا؟!

قلت: نعم، لو كان دعاة القومية في أوطاننا يقفون عند هذا الحد؛ لكان الخلاف بيننا وبين القوميين لفظيًا، وكنا معهم بحكم ديننا الذي يجعل هذه الأمور فرائض مقدسة ـ تحرير الوطن والنهوض به، ووحدة الأمة، والوقوف في وجه الأعداء.. إلخ.. والذي يجعل لعشيرة المسلم وجيرانه حقًا أكثر من غيرهم على الناس بحكم القرابة الواصلة والجوار الجامع، ولكن الحقيقة أن بيننا ـ معشر الدعاة إلى الإسلام ـ وبين الدعاة إلى القومية ـ كما يعرضها دعاتها اليوم ـ هوة عميقة أو فجوة واسعة، والخلاف بيننا وبينهم خلاف حقيقي جذري، لا يمكن معه لقاء فكري بين الطرفين.

قال صاحبي: وما هي الأمور التي تخالفون أو يخالفكم فيها دعاة القومية، وأعني بالذات القومية العربية؟

قلت: نحن نعارض دعاة القومية في عدة أمور جوهرية، يتمسكون هم بها، وينكرها الإسلام، وتمسكهم بها ـ فيما يبدو ـ أمر حتمي؛ لأنها مقتضى فكرتهم، ولازم من لوازم دعوتهم.

أولاً: إنهم يعتبرون القومية (عقيدة) يجب الإيمان بها، والولاء لها، والدعوة إليها والتعصب لها، ومعاداة من لا يقبلها ولا يعتنقها.. عقيدة يجب أن يقدم الولاء لها على أي ولاء آخر، ولو كان الولاء لله ولرسوله ولكتابه... يجب أن يغرس حبها في أعماق القلوب، وأن يبدأ ذلك منذ نعومة الأظفار، وأن تفرغ فيها كل العواطف والمشاعر.

يجب أن ينبثق من هذه العقيدة القومية نظام الحكم، وسياسة الدولة، ومناهج التربية والتعليم، ووسائل التثقيف والإعلام، يجب أن يكون اتجاهها جميعًا قوميًا صرفًا، وأن تكون صيغتها الوحيدة الصيغة القومية، وأن تزال أو تطرد كل صبغة أخرى.

إن ما قلناه من قبل عن الاشتراكية النازية والفاشية وما شاكلها نقوله هنا، أعني أنها عقائد وأديان جديدة، تعمل جاهدة على أن تحتل قلوب الناس وعقولهم، وتطرد منها الدين القديم، وهذا الذي نقوله واضح في كتابات القوميين اليوم كل الوضوح.

فهذا كاتب قومي يقول: الوجدان القومي العربي بدأ يستيقظ في نفوس أفراد من العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأول ما بدأ ذلك في ديار الشام مهدوا بالقضاء على الحكم الأجنبي (التركي) يومئذ وعلى الإقليمية، وقد تزعم هذه الحركة وقادها بعض الفضلاء المسيحيين الذين لم تكن تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين المتينة ورابطة الإخاء الإسلامي، وكانوا مثقفين بالثقافة الغربية التي تقوم على تمجيد القومية، وكان من زعمائها الأولين الدكتور فارس نمر، والشيخ إبراهيم اليازجي، والأستاذ نجيب العازوري اللبناني.

القضية العربية لن تكون أبدًا عند العربي المؤمن، الحر العاقل، الشريف الصالح، الخير الأبي، المترفع، إلا قضية إيمان بالوطن للوطن، كقضية الإيمان بالله لله لا غير.

ويشرح الكاتب (العروبة) في بيان واضح ولفظ صريح فيقول: العروبة نفسها (دين) عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين؛ لأنها وجدت قبل الإسلام، وقبل المسيحية، في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها ـ أي العروبة ـ إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات.

ومما يدل على أن القومية العربية قد أصبحت في نظر كثير من دعاتها والمؤمنين بها ديانة إزاء ديانة، وعقيدة مقابل عقيدة؛ مقال لكاتب قومي آخر، جاء في مجلة (العربي) عدد يناير ١٩٥٩م:

ومن معانيه الأولى وحدة لكل من تسمى به من أهل هذه الأرض، والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلب قوم مؤمنين.

ويقول الكاتب الأديب المصري المشهور الأستاذ محمود تيمور منساقًا في هذا التيار: لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة... إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي، ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة، وتكتيل الجبهة، والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة.

وإن كتاب العرب في أعناقهم أمانة، هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة، يزكونها بأقلامهم، وينفثون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن تكتمل لها أسباب النماء والازدهار.

ثانيًا: إن النتيجة الحتمية لهذه العقيدة القومية أن نجد القوميين عامة يجمعون على إعلاء الرابطة القومية على الرابطة الدينية؛ ولهذا ترى دعاة القومية العربية يفضلون العربي غير المسلم على المسلم غير العربي، بل إنهم ليجحدون رابطة الإيمان، ولا يعترفون بأثرها في العلاقات والسلوك؛ وهذا يخالف ما جاء به القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [1]، وما جاءت به السنة: «المسلم أخو المسلم» [2]. القرآن يأمرنا أن ندوس كل رابطة إذا تعارضت مع عقيدة الإسلام،

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٢) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر في كتاب المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠/٥٨).

ورابطة الإسلام، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(٢).

أرأيت أعز وأوثق من علاقة الأب ببنيه، أو الابن بأبيه؟ إنها علاقة يباركها الدين، ويحرص على توثيق عراها، ويقدر العواطف الكريمة التي تنبع منها، ولكنه لا يسمح لها أبدًا أن تعلو على رابطة الإيمان، فضلاً عن أن تعارضها، وتقف في سبيلها؛ فهذا نوح ينجيه الله مع المؤمنين من الطوفان، فيأبى أحد أبنائه أن يؤمن به، ويركب معه سفينة النجاة، وذهب يعتصم بالجبل من الغرق فأدركه الغرق، إذ لاعاصم يومها من أمر الله إلا من رحم، وأدركت عاطفة الأبوة نوحًا عليه السلام، فأراد أن يشفع له عند الله ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣).

كان الرد الإلهي على نوح ردًا حاسمًا صريحًا ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٤) فليس أهل نوح من خرج من صلبه، وإنما أهله وشيعته هم المؤمنون الصالحون، فلا عجب أن يقول الله تعالى عن علاقة إبراهيم خليل الله به بعد قرون بينهما لا يعلمها إلا الله ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ (أي نوح) لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٥).

وإبراهيم يدعو أباه إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يدع عبادة الأصنام التي لا تسمع ولاتبصر ولا تغني عنه شيئًا، ويقول في ختام دعوته في حب

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٣.
(٢) سورة المجادلة: الآية ٣٢
(٣) سورة هود: الآيات ٤٥-٤٧.
(٤) سورة هود: الآية ٤٦.
(٥) سورة الصافات: الآيتان ٨٣، ٨٤.

وإشفـاق: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[1]، فمـاذا قال الأب الذي شب وشـاب على الوثنية؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[2]، وأنجز إبراهيم وعده واستغفر لأبيه ربه ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾[3].

ولكنه حين تبين لإبراهيم عناد أبيه وإصراره على كفره، أعلن مخاصمته في الله، وجاهره وقومه عامة بالبغض في الله، وبرئ إلى الله من شركه وشرك قومه، مما سجله له كتاب الخلود في آيات بينات ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[4]، ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[5].

وجعل موقفه من أبيه وقومه أسوة للأجيال المؤمنة إلى قيام الساعة حيث قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[6].

وإذا كان إبراهيم قد خسر علاقة أب في ذات الله، فإن الله عوضه ألوف الملايين يعترفون له بالأبوة الروحية، ويصلون كل يوم مرات كثيرة على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، فالذي قطع صلة إبراهيم بأبيه المشرك، وصله بالمؤمنين وجعلهم له أبناء بعـد ألوف السنين: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[7]، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[8].

وإذا كان هذا موقف القرآن من رابطة الأبوة والبنوة ـ إذا تعارضت مع الإيمان ـ فما بالك بروابط أبعد تقوم على غير أساس الإيمان والإسلام؟

---

(١) سورة مريم الآية. ٤٥
(٢) سورة مريم. الآيتان ٤٦، ٤٧.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٦.
(٤) سورة الزخرف. الآيتان ٢٦، ٢٧.
(٥) سورة التوبة: الآية ١١٤.
(٦) سورة الممتحنة. الآية ٤.
(٧) سورة آل عمران. الآية ٦٨.
(٨) سورة الحج: الآية ٧٨.

إن القرآن لا يعترف إلا بالإيمان رابطة، ولا يقر إلا الإخاء الإسلامي جامعًا بين المسلمين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١)، أما القوميون فلا يعترفون بالدين جامعًا، ولا مفرقًا بين الناس.

إن مثل القوميين الأعلى يتجلى في قول شاعرهم:

بلادك قدمها على كل ملة	ومن أجلها أفطر ومن أجلها أصم
هوني دينًا يجعل العرب وحدة	وسيروا بجثماني على دين «برهم»
سلام على كفر يوحد بيننا	وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

أما المسلمون بل المؤمنون جميعًا، فيرون هذا الكلام كفراً صريحًا، ينافي أبسط قواعد الإيمان.

إنهم يريدون منا أن نسوي بين أبي لهب وأبي بكر، وبين أبي جهل وعمر بن الخطاب، لأنهم في الميزان القومي سواء، ولكن القرآن يقول:

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾(٢)، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ (٣).

إنهم ينكرون علينا أن نهتم بقضية كقضية مسلمي كشمير، أو قضية مسلمي الحبشة، أو مسلمي الاتحاد السوفيتي (٦٠ مليونًا) ولا حرج عندهم أن يناصروا الوثنيين الهنود ضد المسلمين، ولا جناح عليهم أن يؤيدوا النصارى اليونانيين في قبرص ضد المسلمين الأتراك، ولا بأس عليهم أن يقفوا مع الشيوعيين الروس، أو الصينيين ضد الأقليات الإسلامية التي تبلغ عشرات الملايين (٤).

ثالثًا: نعيب على القوميين عزلهم الدين عن المجتمع والدولة، فالقوميون عامة ينادون بدولة علمانية (لادينية) ويحصرون الدين في نطاق ضيق، لا يتجاوز

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠. (٢) سورة الحشر: الآية ٢٠.
(٣) سورة السجدة: الآية ١٨.
(٤) رأيناهم في السنوات الأخيرة يبررون الغزو الروسي لأفغانستان المسلمة، ويقفون في صف الغزاة ضد المجاهدين المسلمين الأبطال، الذين يدافعون عن العقيدة والأرض والعرض!

العلاقة بين الإنسان وربه (هذا إن رضوا بوجود الدين واعترفوا ببقائه)، أما أن يتدخل الدين في توجيه المجتمع وتشريع الدولة، ونظام الحياة، فهذه (رجعية) يحاربها القوميون جميعًا. يقول أحدهم مبينًا مهمة القومية العربية: (وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم، وكل عصبية إلا العصبية القومية، وتفصل الدين عن السياسة، وتحرم على رجال الدين الاشتغال بها، وتعليم العربي أينما كان أن يتعصب بعنف لأمرين: قوميته والحق).

وما دفعهم إلى ذلك، إلا أنهم طبقوا على الإسلام في الشرق، ما طبق على المسيحية في الغرب، وهذا خطأ جسيم، فالإسلام غير المسيحية في طبيعته وتاريخه وعلاقته بالمجتمع والحياة، والقرآن غير الأناجيل، والمسجد غير الكنيسة، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت.

المسيحية ليس فيها تشريع لدولة، ولا تنظيم للحياة، وإنما هي عقيدة وصلاة وسلوك فردي، وإنجيلها مواعظ للترغيب والترهيب فحسب.

ومع هذا لم تتخل الكنيسة عن التدخل في شئون الحكم والسياسة، ولم تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، كما قال المسيح، بل دست أنفها في كل شيء، وساندت الملوك والأباطرة والنبلاء ضد طبقات الشعب، فلما اندلعت نيران الثورات أكلت الملوك والقسيسين معًا، وكان نداء الثوار (اشنقوا آخر ملك، بأمعاء آخر قسيس).

ولم يقتصر تدخل الكنيسة على شئون الحكم والسياسة، بل تجاوز ذلك إلى شئون العلم والفكر، فتبنت الكنيسة كل نظرية قديمة، ووقفت تحارب كل جديد، وتطالب بقتل العلماء والمفكرين وتحريقهم.

كان دين الكنيسة ـ ولا أقول دين المسيح؛ لأن الغربيين لم يعرفوا دين المسيح قط ـ قد جعل من نفسه عدواً للحياة، عدواً للتقدم، عدواً للعلم، عدواً للحرية، عدواً للعدل والمساواة، فكان لابد للناس في الغرب وقد مستهم نفحة من الشرق أيقظتهم من سباتهم، عن طريق الأندلس، وعن طريق الحرب الصليبية، فنهضوا

يريدون الحياة والتقدم والعلم، والحرية والإخاء والعدالة والمساواة.. كان لابد لهم أن يصطدموا بأعداء هذه الفضائل كلها، وهم ممثلو الدين هناك ـ للأسف ـ وكان من الطبيعي أن ينتصر هذا النور الزاحف على ذلك الظلام الراكد، وأن يعلن القوم بعد انتصارهم تنحية الدين عن الحياة العامة، وعزله عن قيادة المجتمع وتوجيه الدولة.

فهل يجوز أن يحمل هذا التاريخ الأسود الكريه، ليوضع برمته على رءوسنا ويحمل ديننا تبعة فساد دين آخر في بلاد أخرى؟

إن الإسلام دين قام من أول يوم على النظر والتفكر، وتمجيد القلم والكتاب، والتفرقة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ورفض التقليد والجمود واتباع الظن، والحرص والهوى، ولم يحدث في تاريخه صراع حقيقي بين الدين والعلم، وبين النقل والعقل، وبين الشريعة والحكمة.

ولم يقف هذا الدين ضد الحياة والنور والتقدم يومًا، بل كان هو القلب الذي يمد الحياة بالدم، والشمس التي تمد المجتمع بالنور، والماء الذي يجعل من الناس كل فرد حي.

ولم يقف علماء هذا الدين يومًا ما ـ بصفة جماعية ـ يسندون الظلم الحاكم أو الحكم الظالم، بل كانوا ـ في جملتهم ـ قادة الشعب في معاركه الكبرى ضد الغزو من الخارج، والظلم من الداخل.

والخلاصة يا صاحبي: أن القومي الأصيل ـ كما صوره هؤلاء ـ يسقط الدين من حسابه، ويضعه على (الرف) أو في مستودعات المستهلك والتالف الذي لا ينتفع به، ولا يلتزم القومي الأصيل نحو الدين وقيمه وعقائده وأحكامه بشيء، فلا حرج عليه قط أن يأخذ من الماديين مذهبهم في تفسير الوجود، ومن أبيقور مذهبه في تفسير التاريخ، ومن دور كايم مذهبه في علاقات المجتمع، ومن سارتر مذهبه في الأدب والحياة، ولا يسأل نفسه يومًا: هل تتفق هذه المذاهب والأفكار مع الإسلام أم لا؟ على أنهم لو عرفوا فعلاً أنها تعارض الإسلام ويعارضها، لعضوا عليها بالنواجذ، ونبذوا الإسلام وراءهم ظهريًا.

رابعًا: نعارض القوميين في تفتيتهم للأمة الإسلامية التي أرادها الله أمة واحدة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[1]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[3] ـ إلى أمم شتى، وقوميات متضاربة، تتنازع على حدود أرضية، وتتفاخر بعصبيات جاهلية، وتعتز بغير الأخوة الدينية، والرابطة الإسلامية التي قرنها الله في كتابه بالإيمان، وجعلها دليله وعنوانه فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[4]، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[5] أي بعد أخوتكم ووحدتكم متفرقين متنازعين، فالقرآن يعبر عن الوحدة بالإيمان، وعن التفرق بالكفر، لأنه يؤدي إليه، وفي الحديث الصحيح: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[6]، «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[7]، ويقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» متفق عليه[8].

ومنطق القومية يجيز للمسلمين أن يقاتل بعضهم بعضًا، ويسفك بعضهم دماء بعض، نتيجة لتصارع القوميات المختلفة، كما رأينا ذلك في اقتتال العرب والترك في الحرب العالمية الأولى، بتدبير الإنجليز وتحريكهم، بل تحت قيادتهم، فاعجب. وكما رأينا من قريب، قتال القومية العربية مع القومية الكردية في العراق.

وإذا كنت في مطلع حديثك قد استعذت بالله ـ بوصفك عربيًا ـ من القوميات الضعيفة التي تمزق شمل الأمة العربية، وتفتت كيانها، وتخلق الحواجز بينها، فهذا المنطق نفسه، يحتم عليك ـ بوصفك مسلمًا ـ أن تستعيذ بالله أيضًا من

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.
(٢) سورة آل عمران. الآية ١١٠
(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٤) سورة الحجرات: الآية ١٠.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٠.
(٦) رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود في كتاب الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤/١١٦، ١١٧).
(٧) رواه البخاري من حديث جرير بن عبد الله في العلم(١٢١) وفي المغازي (٤٤٠٥)، ومسلم في الإيمان (٦٥/ ١١٨).
(٨) رواه البخاري من حديث الأحنف بن قيس في كتاب الإيمان (٣١) وفي الديات (٦٨٧٥)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨/ ١٤).

القوميات الضيقة التي تمزق شمل الأمة الإسلامية، وتفتت كيانها . . . إلخ، سواء كانت تلك القوميات عربية أو طورانية أو فارسية أو غيرها.

خامسًا: إن الفكرة القومية فكرة جاهلية رجعية، تنكر الدين، وينكرها الدين، كل دين فضلاً عن الإسلام.

أما إنها جاهلية؛ فلأنها تقوم على إحياء العصبية التي كانت من أخص سمات العصر الجاهلي، والتي برئ الإسلام ورسوله منها كل البراءة إذ قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»(١).

ومن إحياء العصبية الجاهلية الاعتزاز بالآباء، والتفاخر بالأجداد، وإن كانوا في نظر الإسلام من أكفر الكفار، وأفجر الفجار، وأولى الناس بالنار، وبئس القرار، كالذين يعتزون بفرعون ـ كرمسيس وغيره ـ أو بأبي جهل ومن شاكله من العرب.

روى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله عز وجل، من الجُعَل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم سبة الجاهلية ـ أي كبرها ـ وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(٢).

الجعل دويبة أرضية، تدهده الخرء بأنفها . . أي تدحرجه، وهي مثل في الهوان والحقارة، وأهون منه عند الله الذين يفخرون بالكفرة من أجدادهم، وما هم إلا فحم جهنم ووقود النار.

ولقد حدثني بعض الثقات أن أحد القوميين الغلاة، سمى ابنه (لهبًا) ليناديه الناس بكنية (أبي لهب) فيحيي بذلك ذكر زعيم عربي من زعماء الجاهلية ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(٣)!

---

(١) رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم في كتاب الأدب (٥١٢١)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٤٣).

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة في كتاب المناقب (٣٩٥٥) وقال. حسن غريب، وأبو داود في كتاب الأدب (٥١١٦).

(٣) سورة المسد: الآية ١.

وقد نسمع غداً من يسمي ابنه (جهلاً) ليكنى (أبا جهل) والجنون فنون.

وأما إنها رجعية؛ فلأنها ليست إلا امتداداً للشعور القبلي، وإذعانًا لعصبية العشيرة، والتنادي بنصرتها ظالمة ومظلومة، وهذه رجعة بالإنسان إلى الوراء البعيد، حيث كانت ارتباطات العشيرة وحدها، هي التي توجه الفرد وتسيره، وفقًا لنزعاتها وتقاليدها، ثم انتقل ولاء الإنسان من العشيرة إلى الأمة، ثم نقلته الأديان السماوية إلى أفق أعلى وأرحب هو أفق العالمية الإنسانية.

يقول امرى ريفر في كتابه (قضية السلام) تحت عنوان (تشويه الدين): (بلغت عبادة الدولة القومية ذروتها في البلاد الفاشية).

ولكن تشويه الدين وتسخيره للغايات القومية لوحظ في كل أمة.

إن العنصر المقدس والمهذب في المسيحية هو أنها عالمية، وأن مبدأها أن الناس خلقوا متساويين أمام الله، وهم يعنون لإله واحد، قانونه واحد، يسري على الناس جميعًا، ولقد كانت هذه فكرة ثورية في التاريخ البشري، ولكن ظهور الدولة القومية منع هذه الفكرة أن يكون لها أثر مهذب.

ففي اللحظة التي بدأت فيها الأمم الحديثة تتبلور، بدأ الشعور القومي في العالم الغربي يتغلب على الشعور المسيحي، وكانت الكنيسة منقسمة، وازدادت انقسامًا إلى مذاهب أخرى، يؤيد كل منها المثل الأعلى الناشئ للأمة.

وصار من المعترف به في كل بلد أن السياسة القومية سياسة مسيحية، وتحولت الكنائس المسيحية إلى هيئات قومية، تؤيد الغرائز القبلية للروح القومية.

ففي آلاف من الكنائس يسأل الله القسيس الكاثوليك، والوعاظُ البروتستانت، المجد لمواطنيهم، والويل لغيرهم، وإن كان هذا يتناقض مناقضة شديدة مع أسمى المثل العليا الدينية التي أوتيها الإنسان.

إن المبدأ الأخلاقي الكوني لا يكون كونيًا ولا أخلاقيًا، إذا كان لا يصح إلا داخل جماعات منفصلة من الناس.

فـ (لاتقتل) لا يمكن أن يكون معناها أن من الإجرام أن تقتل رجلاً من مواطنيك، ولكن من الفضيلة أن تقتل رجلاً يعد مواطنًا في دولة أخرى.

ومثل هذا التطور يلاحظ في جميع أديان التوحيد الثلاثة، فالوحدة التي احتفظ بها القرآن قرونًا بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأصول، قد ذهبت وصار الشعب الإسلامي قوميات شتى.

فدعاة الجامعة التركية يرمون إلى توحيد فروع معينة من الجنس التركي، ودعاة الجامعة العربية يشيرون باتحاد الشعوب العربية.

ويقول المسلمون في الهند: «إننا هنود أولاً ومسلمون بعد ذلك»، وقد نسي الجميع الصبغة العالمية التي كانت أساس دين الإسلام العظيم.

والأمر لا يقتصر على المسيحية والإسلام، فإن أقدم الموحدين، وهم اليهود، قد نسوا التعاليم الأساسية، وهي أنه عالمي...

فهم يبغون أن يعبدوا بعواطف مشبوبة إلههم القومي الخاص، وأن تكون لهم دولتهم القومية.

وما من اضطهاد أو عذاب مهما بلغ من أمره، يمكن أن يسوغ نبذ هذه الرسالة العالمية من أجل القومية، وهي اسم آخر للقبلية التي هي أصل مصائبهم جميعًا.

وإنه لعلى أعظم جانب من الخطر لمستقبل الإنسانية، أن تدرك مبلغ التشويه الذي أصاب عقيدة التوحيد العالمية.

فما كان من الممكن قط ـ بدون تأثيرها ـ أن تقوم الحرية الإنسانية في الجماعة الديمقراطية، ولا أن تبقى، وما من سبيل إلى إنقاذ الجماعة الإنسانية إلا بالعالمية.

فإذا لم تعد الكنائس المسيحية إلى مبدئها المركزي، وتجعله مبدأها المركزي فيما تعمل، فإنها ستزول أمام عقيدة جديدة عالمية، لابد أن تبرز من بين الخراب والآلام، التي يسببها تهافت القومية الآتي لا محالة.

سادسًا: إن دعاة القومية لا يكتفون بعزل الدين عن الحياة، بل يقفون موقف العداوة للتيار الإسلامي، والمعارضة لكل حركة إسلامية قوية، تعمل على استعادة نظام الإسلام، وتنادي بالعودة إلى تعاليمه والاعتصام بحبله، والتكتل تحت لوائه، وهذه العداوة من القوميين للإسلام منطقية لأمرين:

الأول: إن هذه الخصومة والعداوة نتيجة طبيعية للمقدمات التي ذكرناها من قبل باعتبارها عناصر لازمة للقومية أو مرتبطة بها، من إعلاء الرابطة القومية على الرابطة الدينية، واحتقار الأخوة الإسلامية، والمناداة بدولة علمانية لا دينية، ومعارضة الوحدة الإسلامية وتمزيق الأمة الإسلامية إلى أمم وقوميات متعارضة. . . إلخ.

الثاني: إن هذه القوميات في عالمنا الإسلامي إنما بذر بذرتها فيه، وتعهدها ونماها هو التبشير والاستعمار، وقد اختار تلاميذه في أول الأمر لخدمة هذه القضية من غير المسلمين ليهدم بهم الخلافة الإسلامية في تركيا، التي أذلت الغرب النصراني يومًا ما، وطرقت أبواب ڤينا سنة ١٦٨٣م، ثم ليهدم بهذه القوميات الجديدة أي أمل في وحدة إسلامية مستقبلة؛ فلا عجب أن رأينا أنطوان سعادة مثلاً يدعو إلى قومية سورية، وسلامة موسى يدعو إلى قومية مصرية، وميشيل عفلق وجورج حبش يدعوان إلى قومية عربية، ومن تكليف الأشياء ضد طباعها أن نطالب هؤلاء الدعاة النصارى الأقحاح بالولاء للإسلام، ورسالة الإسلام، وأخوة الإسلام.

ولقد بدأ هذا الخطر بالقومية الطورانية، التي تبناها حزب (الاتحاد والترقي) فى تركيا، وانتهى أمرها بفصل العرب عن دولة الخلافة، وقيام الحرب بين الأخوين المسلمين يقاتل أحدهما الآخر بقيادة الكفار وتوجيههم، ووحي المستعمرين الصليبيين وتدبيرهم، وما أمر الثورة العربية ودور لورانس فيها ببعيد.

ولقد أتت هذه العصبية القومية الطورانية ثمراتها، فألغيت الخلافة، وهدمت هذه الفلسفة الضخمة للإسلام، وتمزقت الدولة الإسلامية الكبرى إلى دويلات ومزق وأشلاء تنتسب إلى أوطان وقوميات شتى، لا تستطيع أن تخيف.

قال صاحبي: ولكن أليست هذه الأفكار قد نبتت في ديار الإسلام نفسها، وبوحي من تفكير أبنائها أنفسهم، فلماذا ننسبها إلى الأجانب المستعمرين ونجعلها (بنت سفاح) لا بنت حلال؟

قلت: إن هذه الأفكار قد جلبت بذورها إلى ديارنا جلبًا، وتولى أعداؤنا زرعها في تربتنا بأيديهم، وقام عليها تلاميذهم وأنصارهم وعبيد مدنيتهم، فليس ما نقوله زعمًا ندعيه، بل هو ما يعترف به الأجانب أنفسهم والقوميون ذاتهم، وما يؤيده التاريخ والواقع والمقارنة بين الأمس واليوم.

يقول الأستاذ برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن: «كانت الإمبراطورية العثمانية آخر وأطول الإمبراطوريات الإسلامية العالمية الكبيرة التي حكمت الشرق الأوسط، منذ أيام الخلفاء الراشدين، وفي هذه الإمبراطورية كان ولاء المسلمين الأساسي للإسلام، وللدولة التي تجسد واقع الإسلام السياسي، وللخلافة التي اكتسبت الصفة الشرقية بالمبايعة على مرور الزمن، والتي كانت تسوس أمور الناس، وكان المعارضون والمتمردون يسعون لتغيير الوزراء أو الحكام أو حتى الخلافة الحاكمة كلها، ولكنهم لم يسعوا أبداً لتغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته»[(١)].

ويتحدث عن العرب وموقفهم داخل الخلافة العثمانية فيقول: «لقد كانوا على علم باختلاف لغتهم وثقافتهم وذكرياتهم التاريخية عن الترك، ولكنهم لم يبدوا أي رغبة جدية بالانسلاخ عن الدولة العثمانية، ولم يعترضوا على وجود سلطان تركي، بل على العكس من ذلك كان من المحتمل أن يستغربوا وجود غيره على رأس الحكم العثماني، ولقد كانت فكرة قيام الدولة على أساس الأرض والوطن القومي غريبة أجنبية بالنسبة لهم حتى إن كلمة (Aralua) ليس لها مثيل في اللغة العربية، وكذلك الأتراك لم يخترعوا كلمة (تركيا) إلا حديثًا، وهي من أصل أوروبي، أما العرب فلم يخترعوا تعبيراً جديداً، بل اكتفوا بالتعبير الذي يدل على جزيرة أو شبه جزيرة العرب»[(٢)].

هذا ما كان عليه حال المسلمين أتراكًا وعربًا، قبل أن يطل شيطان القومية العلمانية برأسه، فانظر كيف بدأ إبليس الخبيث يدخل إلى صفوف المسلمين؟

يقول المؤرخ المذكور: «ولقد تسربت القومية العرقية من أواسط وشرق أوربا عبر أقنية عدة، ولقد كان اللاجئون الهولنديون والمجريون ـ على الغالب ـ أول الناقلين، عندما ذهبوا إلى تركيا، بعد فشل ثورتهم سنة (١٨٤٨م)، فلقد بقي قسم كبير منهم فيها، واعتنقوا الإسلام، واحتلوا مناصب مهمة في الدولة العثمانية، وكان أحدهم الكونت قسطنطين بورزيسكي، وقد سمى نفسه بعد ذلك مصطفى

---

(١) من كتاب: (الغرب والشرق الأوسط): ١٠٨، ١٠٩.
(٢) نفس المصدر: ١٠٩، ١١٠.

جلال الدين باشا (!) ولقد نشر سنة ١٨٦٩م كتابًا بالفرنسية في إستانبول اسمه (أتراك الأمس وأتراك اليوم)، وفي الكتاب جزء كبير يشكل تقريراً للسلطان عن المشاكل الحاضرة في الإمبراطورية واقتراحات حلها، وبه جزء تاريخي يضم دراسة أجراها المستشرقون الأوروبيون عن التاريخ القديم للشعب التركي، وبه يؤكدون دور الأتراك الإيجابي الخلاق في التاريخ، ولقد حاول يورزيسكي جهده لإثبات أن الأتراك هم من العرق الأبيض مثل شعوب أوروبا، وينتمون لما أسماه العرق (الطوراني - الآري).

ولقد عمل الكونت بورزيسكي على نقل القومية البولونية، ووضعها في قالب تركي، وساعده على هذا العمل ما عرضه من أعمال المستشرقين الأوروبيين الباحثين في الشئون التركية، ولقد وصلت نتائج أبحاث هؤلاء إلى المجتمع التركي عن عدة طرق، وكان لها تأثير مهم على الذهنية التركية، خصوصًا في تقدير التاريخ التركي القديم، والاعتقاد بالهوية المميزة والمركز اللائق في التاريخ، ولقد كان الأتراك أكثر من العرب والعجم نسيانًا لتاريخهم الماضي، فلقد كانوا لا يفكرون بأية هوية أخرى غير الإسلام، ولكن المستشرقين - عن قصد أو عن غير قصد - ساعدوا الأتراك على استعادة هويتهم القومية الضائعة، وعلى الدعوة إلى حركة تركية جديدة»(1).

ولم تكن هذه النزعة مقبولة لدى جماهير المسلمين أول ما ظهرت، فقد أنكروها وهاجموها بقوة وصراحة.

وعندما ثارت القومية الألبانية سنة ١٩١٢م، أثارت معها حملة من الاستنكار قام بها الشاعر محمد عاكف المسلم الوطني المعارض للقومية، وكان هو من أصل ألباني قال: «إن ملتكم هي الإسلام، فما هذه القومية القبلية؟

هل العرب أفضل من الترك، أو أن اللاظ أفضل من الشركس والكرد؟

أم أن الفرس أفضل من الصينيين؟ بماذا يفضلونهم؟

ماذا دهاكم؟ هل تقسمون بلاد الإسلام إلى أجزاء متعددة؟

---

(١) الغرب والشرق الأوسط: ١٢٦، ١٢٨.

إن الرسول الكريم نفسه سفه العصبية القبلية، وليس باستطاعة الأتراك العيش بدون العرب، ومن يقول غير هذا فهو مجنون، والترك بالنسبة للعرب عينهم اليمنى، وساعدهم الأيمن، فلتكن (ألبانيا) لكم إنذاراً، ما هذه السياسة المتخبطة؟ وما هو هذا الهدف الشرير؟!

اسمعوها مني، أنا الألباني.. لا أقول أكثر من هذا.. أسفي على بلادي المبتلاة»![1]..

ومثل محمد عاكف في موقفه الشاعر الفيلسوف المسلم الهندي الدكتور محمد إقبال، الذي تنبه في وقت مبكر لدخول هذا السرطان في دنيا المسلمين، ونبههم على خطره وسوء أثره فهو يقول: (لقد هاجمت فكرة القومية منذ الأيام التي لم تكن فيها القومية معروفة في الهند أو في العالم الإسلامي، ومنذ البداية شعرت بوضوح من خلال قراءاتي لكتابات المؤلفين الأوروبيين بأن خطط أوروبا الاستعمارية كانت تهدف إلى الدعوة للقومية لتفرقة صفوف الناس لأن ذلك سلاح فتاك، كانوا في أشد الحاجة إليه، واقتضت هذه الحاجة الدعوة إلى مبادئ القومية، حسبما جاءت به أوروبا في البلاد الإسلامية، من أجل تحطيم الوحدة الدينية القائمة بين المسلمين).

قال صاحبي: ولكننا بالدعوة إلى القومية العربية مثلاً قد حللنا مشكلة كبيرة كانت أعقد من ذنب الضب، تلك هي مشكلة العربي غيرالمسلم، الذي يعيش معنا في ديارنا والذي يساكننا الأرض، ويقاسمنا السراء والضراء، ويشاركنا الآلام والآمال؛ ففي إطار الوحدة القومية تذوب الفوارق الدينية، وتنحل العقد الطائفية، فلا مجال لقائل في الوطن العربي مثلاً أن يقول: (أنا مسلم أو نصراني)، وإنما قول الجميع: (أنا عربي).

قلت: إنما يكون ذلك حلاً حقيقيًا يوم يتخلى المسلم عن إسلامه، والنصراني عن نصرانيته، ويحيا كل منهما بلا دين، أما إذا ظل المسلم مسلمًا؛ فإن دينه يحتم عليه أن يؤثر رابطته على كل رابطة، وعقيدته على كل عقيدة، ويضحي في سبيله بكل ما يتشبث به الناس ويحرصون عليه من علائق وصلات، وحسبنا قوله

---

(٢) نفس المصدر: ١٣٥، ١٣٦.

تعـالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، وقـوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2]. ولهذا كان شعار العربي المسلم قديمًا:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وإذا ظل المسيحي مسيحيًا، فإن دينه يأمره أن يجعل رابطته الدينية فوق كل علاقة، ففي إنجيل لوقا يقول المسيح: «إن من يحب والده أو أمه أكثر مني لايستحقني! والذي يحب ابنا أو ابنة أكثر مني لا يستحقني أيضًا!».

وعندما قيل للمسيح مرة: «إن أمه وإخوته يقفون في الخارج يريدون التحدث إليه قال: أمي؟ من هي أمي؟ ومن هم إخوتي؟ ثم أشار إلى تلاميذه وقال: أنتم أمي وأنتم إخوتي».

وعندما جاء أحد تلامذته واستأذنه في الذهاب لدفن أبيه قال له: «اتبعني واترك الموتى يدفنون موتاهم!».

وإذن يكون القول بأن الدعوة القومية قد حلت مشكلة اختلاف الأديان في الأمة الواحدة، من السطحية الفارغة، أو النفاق السياسي، الذي يهتم بمحض الدعاية والإعلان، لا بعلاج القضية من الجذور.

قال صاحبي: وكيف إذن نحل مشكلة الأقليات غير المسلمة في المجتمع العربي؟

قلت: بما حلت به طيلة ثلاثة عشر قرنًا مضت أو تزيد، أعني بأن يبقى كل ذي دين مستمسكًا بدينه، حريصًا على تعاليمه، مقيمًا لشعائره، في غير إكراه ولا ظلم ولا رياء، مع إقرار حق الأغلبية في أن تحكم بالشريعة التي ترتضيها، وتراها نابعة

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.
(٢) رواه البخاري من حديث أنس بن مالك في كتاب الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤/ ٦٩، ٧٠).

من ضميرها، متفقة مع عقيدتها، يُظل الجميع - من الأقلية والأكثرية - روح الإخاء والتسامح والعدل في الحقوق والواجبات، وليس ذلك مجرد تملق سياسي، أو نفاق اجتماعي، وإنما هو دين لا يسع المسلم مخالفته أو الإعراض عنه إلا إذا أعماه الهوى، وغره بالله الغرور.

والإسلام بالنسبة للمسلم دين وعقيدة وعبادة، وهو لغير المسلم - في الوطن العربي خاصة - ثقافة وحضارة؛ ولهذا وجدنا بعض المسيحيين الكبار يدعون إلى تطبيق الشريعة بحماس أكثر من حماس بعض المسلمين مثل الزعيم السوري المعروف فارس الخوري، رئيس وزراء سورية الأسبق (١).

هذا حلنا لمشكلة العربي غير المسلم، فقل لدعاة القومية: كيف تحلون - معشر القوميين - مشكلة المسلم غير العربي داخل الوطن وخارجه؟

لقد ناديتم بالقومية من أجل ملايين من غير المسلمين داخل الوطن العربي، ونسيتم أن هناك أكثر منهم ملايين من غير العرب يسكنون هذا الوطن، كالأكراد في العراق، والبربر في شمال إفريقيا، لا يحل عقدتهم إلا التنادي بالإسلام وأخوة الإسلام، وكفى بمشكلة الأكراد في العراق درسًا قاسيًا لدعاة القومية لو كانوا يفقهون.

ثم خسرتم من أجل هذه الملايين القليلة من العرب غير المسلمين ولاء مئات الملايين من المسلمين غير العرب في آسيا وإفريقيا، وهم الصديق الطبيعي للعرب، بل هم الأخ الشقيق في الحقيقة، وذلك لأن الإسلام من شأنه أن يفرض عليهم حب العرب وتقديمهم على أنفسهم، فمنهم الرسول الذي أرسل رحمة لهم وللعالمين، وبلسانهم نزل الكتاب المبين، ومنهم كان حماة الإسلام وهداته الأولون، الذين حملوا إليهم نور الإسلام، وهُدي القرآن، وفي أرضهم - أعني العرب - تقع الكعبة البيت الحرام الذي يتوجه إليه المسلم في اليوم خمس مرات فريضة من الله، ويقصده في العمر مرة على الأقل، تلبية لأمر الله، وفي أرض العرب كذلك مسجد النبي ﷺ وقبره الشريف، وفيها أيضا المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

---

(١) انظر: فصل (الأقليات الدينية والحل الإسلامي) من كتابنا: (بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين).

كما أن المسلم غير العربي يلزمه دينه أن يحفظ من لغة العرب ما يصحح به عبادته، ويرغبه أن يتقنها حتى يتلو بها كتاب ربه، ويروي بها سنة نبيه، ويوجب على طائفة منهم أن يتعمقوا في معرفتها ليتفقهوا بها في دينهم، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

الحق أن الإسلام يعرِّب المسلم العجمي، يُعرِّب فكره وقلبه أولاً، ثم يعمل على تعريب لسانه ولغته، وإذا كان الجناح الإفريقي اليوم يضم الأغلبية العظمى من العربي ـ وهم من غير الجزيرة ـ فما ذاك إلا من أثر الإسلام الذي دخل هذه البلاد ـ مصر والسودان وبلاد المغرب العربي ـ فنقلها من قومياتها ولغاتها وأديانها القديمة إلى دين جديد ولسان جديد ـ دين الإسلام ولغة القرآن.

ولقد رأينا في باكستان والصومال ونيجيريا وغيرها من البلاد الإسلامية، في آسيا وإفريقيا هيئات وجماعات تقوم على تعليم اللغة العربية ونشرها حبا للإسلام، وخدمة للقرآن، ولقد حدثنا الذين زاروا هذه البلاد [1] وخالطوا أهلها المسلمين أن كثيراً منهم يودون من صميم قلوبهم أن يهجروا لغتهم المحلية، ويتحولوا إلى العربية لتكون لغة تخاطبهم ولغة دولتهم الرسمية.

ويجدر بي أن أسجل هنا عدة سطور من رسالة قيمة عن (مشاكل التعليم العربي في نيجيريا) كتبها أحد علماء نيجيريا المسلمين المخلصين، الذين هيأ الله لهم فرصة تعلم العربية والقيام على تعليمها، ذلكم هو السيد (آدم عبد الله الألودي) يقول في هذه الرسالة تحت عنوان: (فصل اللغة العربية عن الإسلام): «يمتاز الإسلام عن سائر الأديان باندماج اللغة العربية فيه اندماجًا لا يقبل تحليلاً ولا انفكاكًا، وقلما يوجد في تاريخ الأديان دين ساعد على نشر لغة كالإسلام، وهو نفس الأمر الذي عقد للعرب لواء الزعامة، التي لا ينازعهم فيها جنس آخر من العالم الإسلامي مهما أوتي من قوة في الإيمان، وفهم في القرآن، ويقين ففي الإسلام، فمكانة العرب في الإسلام ـ أمس واليوم وغداً ـ مكانة الروح من الجسد، أو الرأس من اليدين»، ولقد صدق الأثر القائل: «إذ ذل العرب ذل الإسلام، إذا عز العرب عز الإسلام».

---

(١) كتبت ذلك قبل أن أزور هذه البلاد، وألمس ذلك بنفسي.

«ولقد انتشر اللسان العربي مع انتشار الإسلام، فطغت العربية على الرومية في الشام، وعلى الفارسية في العراق، وعلى القبطية في مصر، وعلى البربرية في شمال إفريقيا، ونزع الإسلام لغتهم من خلال ألسنتهم، ولقنهم العربية فاستساغوها وأجادوها، واستعربوا بها كما استعرب إسماعيل عليه السلام أول العرب المستعربة».

«وكذلك سارت العربية جنبًا إلى جنب مع اللغات الوطنية في بعض الأقطار، كالهند والترك وغرب إفريقيا».

«أما نظرية فصل اللغة العربية عن الإسلام، فمثلها كمثل نظرية فصل الدين عن الدولة، التي ظهرت لأول وهلة في العالم الإسلامي بصورة ضئيلة، ولم تلبث أن صارت أمراً هائلاً مثيراً لكثير من الشجون، كَشَرٍ يبدأ صغيراً، فلا يلبث مع هبوب الرياح أن يصير سعيراً يتلظى» ا. هـ.

ما الذي جعل هذا النيجيري الإفريقي يحب العرب ويقدس لغتهم، ويقدمهم على قومه، ولغتهم على لغته، ويعقد لهم لواء الزعامة في العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها؟؟ إنه الإسلام وحده.. فيا عجبًا كيف نضحي بهذه الشعوب الإسلامية في آسيا وإفريقيا، ونقدم أخوتها لنا وحبها إيانا ـ نحن العرب ـ قربانًا على مذبح القومية؟؟

لقد زرت تركيا بعد هزيمة حزيران (يونيه) ١٩٦٧م، فوجدت الشعب التركي الشقيق ـ وبخاصة أهل الدين فيه ـ يغلي كالمرجل، غيظًا على اليهود وانتصاراً للعرب، برغم ما بذل الاستعمار والماسونية وغيرهما من جهود في سبيل تمزيق الروابط بين العرب والأتراك.

وحدثني بعض أعضاء الوفد الذي زار البلاد الإسلامية من علماء العراق، عقب نكبة ١٩٦٧م كيف كانت تستقبلهم الألوف وعشرات الألوف، منادين بالجهاد، مطالبين أن يفسح لهم المجال؛ ليساهموا بدمائهم في إنقاذ أولى القبلتين وثالث المسجدين المعظمين، ولم يكونوا يخلصون من زحام الجماهير المتحمسة الغاضبة إلا بعسر شديد.

وحدث أن وقف واحد من الوفد يتحدث في أحد المحافل في باكستان عن

الأخوة والمساواة التي جاء بها الإسلام، وكيف ساوى بين العربي والعجمي، وجعلهم كأسنان المشط الواحد، فقام بعض كبار الموجهين منهم، وقال: أما نحن فنقول: إن العرب هم سادتنا، وهداتنا، وحملة الإسلام إلينا، ولولاهم لكنا وثنيين.

ويذكر الأستاذ اللواء محمود شيت خطاب: أن سفير الأفغان في بغداد قال له بعد نكبة حزيران (يونيه) ١٩٦٧م: لقد سقطت كابول عاصمة الأفغان بيد العشائر الأفغانية، التي طوقتها من كل جانب، وهي تهتف: لقد اندحر سادتنا العرب، واحتل اليهود القدس الشريف، فابعثونا للجهاد. وقبضوا على وزير الخارجية الأفغاني، وحاولوا أن يذبحوه ذبح الخراف.

ولم يقف تأييد المسلمين للعرب عند الشعوب فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الزعماء والرؤساء الذين لا تحركهم نزعات قومية أو إلحادية.

قال الرئيس الباكستاني محمد أيوب خان: عندنا مشكلتان: مشكلة فلسطين، ومشكلة كشمير، ولن نعترف بإسرائيل حتى ولو اعترف بها العرب.

وقال زعيم نيجيريا الراحل ورئيس وزرائها الشهيد أحمد وبيللوا، لمحرر صحيفة سأله: هل يقبل مواجهة وزيرة خارجية إسرائيل؟ فقال: نعم، على شرط واحد أن أطلق عليها الرصاص!

وقال السيد أدن عبد الله رئيس جمهورية الصومال: إن إسرائيل أعدى أعدائنا ولا نرضى بأقل من قذفها في البحر(١).

وإذا كانت بعض حكومات البلاد الإسلامية لها علاقة بإسرائيل، فذلك ثمرة لشجرة القومية العلمانية الملعونة في القرآن والسنة، وكلما اقتربت هذه الحكومات من الإسلام اقتربت من العرب وابتعدت عن إسرائيل.

على أن موقف الشعوب الإسلامية جميعًا لاريب أنه مع العرب قلبًا وقالبًا، مهما يكن موقف حكوماتها من العرب أو من إسرائيل.

---

(١) نقل هذه النصوص عن الصحف اللواء خطاب في كتابه: (طريق النصر في معركة الثأر) ص ٤٧١.

فهل من المصلحة أو العقل أن نخسر تأييد ومساندة أكثر من خمسمائة مليون مسلم في العالم الإسلامي من أجل بضعة ملايين من غير المسلمين في العالم العربي؟

إن لغة الأرقام تقول: لا، ثم لا.

ثم قلت لصاحبي: هل تريد الصراحة؟

قال صاحبي: نعم.. ففي الصراحة راحة كما يقولون.

قلت: إذا أردت الصراحة فإن أكثر غير المسلمين في العالم العربي لا يفرقون كثيراً بين العروبة والإسلام، فالعروبة في أذهانهم مختلطة بالإسلام، غير منفصلة عنه، والإسلام عند هؤلاء عربي، والعروبة إسلامية، والتفرقة النظرية بين الأمرين لا يقنعهم، والإقناع الجدلي لا يشفي صدورهم: فمن كان منهم حسن الظن بالإسلام، فهو حسن الظن بالعروبة، ومن ساء ظنه بالإسلام وأوجس منه خيفة، أو أضمر له حقداً، كان ذلك موقفه من العروبة.

هل تريد أن أضرب لك مثلاً؟

قال صاحبي: نعم.. فالأمثلة تفسر المبهم، وتضع النقاط على الحروف.

قلت: لعلك تذكر أنطون سعادة، مؤسس الحزب القومي السوري المعروف بعدائه الصريح للعروبة والقومية العربية. أتعرف السر الكامن وراء هذه العداوة؟ لقد أفصح عنه بعض الإفصاح في بعض مقالاته وتصريحاته، كقوله في إحدى مقالاته المنشورة في الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الأبحاث القومية الاجتماعية ما نصه: «لبست الحزبية المحمدية ـ أقول: المحمدية الإسلامية؛ لأني كما أعلنت سابقًا أعتبر الإسلام شاملاً المسيحيين وأهل الحكمة أيضًا ـ في الرجعية الجديدة لباس (القومية العربية)، وارتكزت على مرتكزين أساسيين: هما اللغة العربية، والدين المحمدي، اللذان نشرهما الفتح العربي المحمدي» ص ١٣.

ونسبة الإسلام إلى (محمد)، واعتبار المسلمين (محمديين) من بنات أفكار المستشرقين والمبشرين كما هو معلوم.

وفي إحدى محاضراته التي احتوتها نشرة التعاليم والشروح للمذهب يقول :

«يوجد عالم يدعى العالم العربي ، والسبب في دعوة هذا العالم كذلك سبب لغوي ديني في الأساس ، فهنالك عالم عربي باللسان ، ويمكن أن نتدرج ونقول : عالم عربي بالدين الذي يحمل كثيراً من بيئة العرب وحاجاتها ونفسياتها ، والذي هو أهم عامل يصل بين أمم العالم العربي اللسان» ص ١١٣ .

ومن غرائب العقد النفسية وآثارها في هذا الرجل أنه كان يدعو إلى اتحاد سوريا والعراق تحت اسم (الهلال الخصيب)، وقد تبنى هذه التسمية واستعملها عدة سنوات ، ثم بدا له في أواخر أيامه ، فهاجم هذه الفكرة وتسميتها بمقالة نارية تحت عنوان : (نحن سوريون لا هلالخصبيون) فما سر ذلك؟ إنه تذكر أن الهلال يعتبر في أوروبا وفي بعض البلاد الشرقية رمزاً للإسلام ، فتوهم أن دعاة اتحاد الهلال الخصيب إنما مالوا لهذه الفكرة تحت تأثير التعصب الديني والحزبية المحمدية . . أرأيت؟؟

وبهذا يا صاحبي تعلم أن التفريط في الإسلام من أجل إرضاء الأقلية غير الإسلامية في البلاد العربية ، نتيجته : أن يخسر المسلمون إسلامهم ، دون أن يكسبوا غير المسلمين ، على أن المسلم الحق لا يبيع دينه بملك المشرق والمغرب ، ولا يشتري سخط ربه برضا أهل الأرض جميعاً ، فكيف يبيع دينه بوهم لا واقع له ، وبسراب يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا؟

بين بواعث الأمل ...
وعوامل اليأس

العودة إلى الإسلام

بين اليائسين والآملين

قال صاحبي: أنا لا أنكر أن الدعوة إلى الإسلام الصحيح والعودة إلى أحكامه وآدابه والتشبث بعقيدته وشريعته، دعوة إلى شيء جميل ورائع حقا، ولكنه جميل ورائع في عالم المثال والخيال والتحليق الشعري فقط، أما في عالم الحقيقة والواقع، فهي دعوة بلا أمل، دعوة إلى نظام لا مستقبل له، نظام ميئوس من تطبيقه.. فلماذا نجهد أنفسنا فيما لا طائل تحته؟ لماذا نبذر ونزرع ونسقي ونتعب بلا أمل في ثمرة، أو رجاء في حصاد؟! أليس أولى بنا - إن كنا عمليين - أن نواجه الواقع، ونتبنى مذهبًا من المذاهب الحديثة، ونستورد نظامًا من الأنظمة السائدة (الجاهزة) فنبني عليه حياتنا ونسير في ركب الحياة المتطور، فنستريح ونريح؟؟

قلت: رويدك يا صاحبي، أما إن كنا ننشد الراحة القريبة السطحية، فأقرب طريق لها هو التسول وسؤال الغير، الذي لا مبعث عليه إلا ضعف الهمة وانحطاط النفس.. ولا ينتج إلا سخط الله والناس، فماذا يحدث - يا ترى - إن نحن نفذنا ما تقترحه من تسول مبدأ أو منهج من غيرنا؟

إننا إن فعلناه أسخطنا ربنا، وخسرنا ديننا، وتنكرنا لتاريخنا، وفقدنا أصالتنا وشخصيتنا، وأصبحنا أذنابًا لغيرنا، نَتَّبع ولا نتبع، ونُقاد ولا نقود، ومع هذا كله لن تستطيع هذه المبادئ المستوردة (الجاهزة) أن تحل مشكلاتنا، وتحقق التوازن الذي ننشده لمجتمعنا، والسعادة التي نرجوها لأمتنا؛ ذلك لأنها لم تسعد أهلها أنفسهم، فكيف تسعد غيرهم؟ وفاقد الشيء لا يعطيه!

ولو سلمنا أنها أسعدتهم في حياتهم، لعجزت عن ذلك عندنا؛ فإنها ثوب خيط لغير جسمنا، ودواء (رُكِّبَ) لغير أدوائنا، فلما نستفيد منه إلا مسكنات وقتية

خادعة، تعقبها آلام مضنية، وعلل وبيلة، فكيف نلتمس فيها الشفاء، وعندنا الدواء المجرب، والشفاء المحقق، بل عندنا إكسير الحياة وروحها، عندنا الإسلام؟!

قال صاحبي: أنا لم أنكر ما في الإسلام من حق وخير وجمال، ولكن أراه في عصرنا أمرًا ميئوسًا منه ـ كما قلت لك ـ أراه دعوة من غير أمل، وأنا أصارحك أننا معشر الشباب في حاجة إلى دعوة تملأ قلوبنا بالأمل، الأمل في النصر وفي المستقبل القريب، فإن الأمل حياة، واليأس موت، ونحن بوصفنا بشرًا وشبابًا نجفل من الموت ونحب الحياة!

قلت لصاحبي: وما الذي جعل الإسلام لا مستقبل له، وجعل العودة إليه أمرًا ميئوسًا منه؟ إن القطع في أمر خطير كهذا بهذه السرعة، وهذه السهولة، غفلة شديدة من أبناء الإسلام، وتهور في الحكم لا يرضاه منطق ولا علم، ولا يسنده الواقع ولا التاريخ.

قال صاحبي: بل المنطق والواقع والتاريخ كلها تسندني فيما أقول، ومعي الأدلة والبراهين.

قلت: هات ما عندك.

قال: إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أمامنا معوقات عدة في طريق العودة إلى الإسلام بعضها فكري، وبعضها عملي، بعضها محلي، وبعضها خارجي، وها أنا أسردها عليك واحدًا بعد الآخر.

المعوق الأول: أننا في عصر تحرر فيه العالم كله من الدين، عالم أسلم قياده للعلم المادي التجريبي، وعزل الدين عن الدولة وعن الحياة، فسعد وارتقى، وحقق المعجزات، أو ما يشبه المعجزات، فهل نقف نحن وحدنا في العالم، ندعو إلى الدين ونتمسك به لنتلقى قذائف الاتهام بالرجعية والجمود من كل مكان؟ أم هل نستطيع أن نقنع الإنسان المعاصر الذي حطم الذرة، وغزا الفضاء، أن يتنازل عن مكاسبه وانتصاراته التي حققها تحت راية العلم، ليدع توجيه سفينته مرة أخرى إلى الدين، الدين الذي وقف من قبل في وجه العلم والعلماء؟

قلت: هل فرغت من حديثك عن هذا المعوق؟

قال: نعم.

قلت: هل تسمح لي أن أرد على كل معوق أولاً بأول؛ لنكون على ذكر منه؟

قال: لا بأس.

قلت: قبل أن أشرح وجهتي، دعني أسألك هذا السؤال: هل تريد الوصول إلى الحق؟ أم تريد الغلبة والانتصار لرأيك؟

قال: أرجو أن يكون الوصول إلى الحق نشدتنا جميعًا، وإلا فلا خير في البحث.

قلت: فأعطني سمعك وعقلك.

قال: ها أنا معك بسمعي وعقلي وقلبي.

قلت: ليس صحيحًا ما قلت: إن العالم تحرر نهائيا من الدين، ورضي بالحضارة المادية، كيف وأصل الدين فطرة أصيلة في النفس البشرية؟ وحاجة الروح الإنساني إلى الدين كحاجة الجسم الإنساني إلى الطعام والشراب والتنفس؟

إن الحضارة المادية لم تشبع كل حاجات النفس الإنسانية، ولم ترض أشواقها وتطلعاتها، ولم تفسر لها كنه حياتها وسر وجودها، ولم ترو ظمأها إلى الخلود، فهذه كلها ليست وظيفة الحضارة المادية، ولا الفلسفة المادية، وإنما هي وظيفة الدين.

فالواقع أن الناس كل يوم يزدادون شعوراً بالحاجة إلى الدين، ويزدادون نقمة على مادية الحضارة وآليتها وتطرفها، ويشكون الفراغ والسأم والتفاهة وفقدان الهدف في حياتهم الصاخبة اللاهثة!

إن العلم قد أعطاهم وسائل الحياة، ولكنه لم يعطهم غاياتها، إنه زين لهم ظاهرها، ولكنه لم يصلهم بأعماقها وأسرارها، لقد وفر لهم المتعة، ولكنه لم يحقق لهم السكينة التي هي سر السعادة، إن أبلغ تعبير عن ذلك، ما قاله أحد مفكري الهنود لأحد مفكري الغرب: لقد أحسنتم أن تحلقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في الماء كالسمك، ولكنكم بعد لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كإنسان!

وكذلك قال طاغور وإقبال في شعرهما من هذا المعنى شيئًا كثيراً.

قال صاحبي: قد يقال: هؤلاء مفكرون شرقيون لا تقبل شهادتهم على حضارة غربية، ربما لا توافق ذوقهم الشرقي وروحهم المتصوفة.

قلت: إليك شهادة شهود من أهلها، اقرأ شهادة ذلك الغربي النمساوي (ليوبولد فايس) الذي أسلم وتسمى باسم (محمد أسد) في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق)، واقرأ شهادة الفيلسوف الفرنسي (رينيه جينو) الذي أسلم، وتسمى باسم (عبد الواحد يحيى) في كتابه : (أزمة العالم الحديث) وحاجته إلى رسالة الإسلام.

قال صاحبي: وهذه الشهادة وإن كانت من غربيين ـ قد ينقص من قيمتها أن صاحبيها أصبحا في زمرة المسلمين.

قلت: إنما دخلا في الإسلام بعد أن نفضا أيديهما من الحضارة الغربية المفلسة، ومع هذا إليك شهادة كثيرين غيرهما من الأوروبيين والأمريكيين الذين لم يفارقوا دينهم إلى الإسلام، وحسبك أن ترجع إلى ما كتبه الدكتور (الكسس كاريل) في كتابه : (الإنسان ذلك المجهول)، والدكتور (هنري لنك) في كتابه : (العودة إلى الإيمان)، و(كولن ولسون) في كتابه : (سقوط الحضارة)، و(لقبنجسون) في كتابه : (التربية لعالم حائر)، و(توينبي) في كتابه : (بحث في التاريخ) وتقرأ ما تنشره الصحف بين الحين والحين عن مفاسد الحضارة الغربية لترى أن هذه الحضارة غاربة ومولية الأدبار، وأن سر إدبارها وإفلاسها هو خلوها من روح الدين الحق وإهدارها لأهم خصائص الإنسان.

فإذا كان الغرب قد حبس الدين بالأمس بين جدران الكنيسة، ولم يسمح له بالحركة إلا بضع ساعات كل يوم أحد، مع أنها حركة مظهرية رسمية صورية، فقد بدأ يحس الإنسان هناك بحاجته الماسة إلى الدين، بيد أنه يريد دينًا يمنحه سكينة النفس واستقامة الحياة، ولا يحرمه مكاسب العلم، ومكتشفات الحضارة، وجبروت الآلة، دينًا لا يسجن عقله، ولا يكبت مشاعره، ولا يصدم فطرته، ولا يحرم عليه طيبات الحياة!! وعداء الغرب للدين، إنما كان في الحقيقة عداء لدين الكنيسة لا لدين الله.

على أن الغرب إن عزل الدين عن الدولة ـ كما قيل ـ إنما عزل الكنيسة ورجال الكهنوت عن الحكم حين وقفوا مع الملوك ضد الشعوب، مع الخرافة ضد العلم، فثارت عليهم الجماهير صارخة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس، ومع هذا ظلت أصابع الكنيسة تعمل في كثير من القضايا السياسية من وراء ستار، وظلت دول

وهيئات سياسية تغذي التبشير الاستعماري، كما تسند الكنيسة ومؤسساتها الاستعمار التبشيري، ولا زال في كثير من أقطار أوروبا أحزاب سياسية تدعى (الأحزاب المسيحية) كما في ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وغيرها، وبعضها تولي الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين في بريطانيا يقرر أن هدفه (إقامة حضارة مسيحية).

فما للمسلمين وحدهم يخافون أن تلحقهم تهمة الحرص على الدين أو العودة إلى الدين؟! هذا مع أن ديننا هنا غير دينهم هناك، وتاريخ علماء الدين عندنا غير تاريخ رجال الكنيسة عندهم، وموقف ديننا من العلم غير موقفهم، لم يقم في ديارنا صراع بين الدين والعلم، ولم تنشأ عندنا محاكم تفتيش تقضي بإحراق العلماء، وتمزيق أجسادهم بالخوازيق والمسامير ومحاكمة جثثهم بعد موتهم، فنحن حين ندعو الإنسان إلى ديننا لا ندعوه إلى أن يتنازل عن مكاسبه الحضارية، وانتصاراته العلمية، فيدع مصباح الكهرباء إلى قنديل الزيت، ويدع الطائرة ليركب الجمل سفينة الصحراء، ويدع معامل التجربة والملاحظة ليسير وراء الخيالات والأوهام، كلا. فطلب العلم النافع عندنا فريضة، سواءاً كان علم دين أم علم دنيا، ومنه ما هو فرض كفاية، ومنه ما هو فرض عين، ولا يقعد المسلم عن طلب العلم ولو بالصين، ولا يضيره أخذ الحكمة من أي وعاء خرجت، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، كل ما يراه الإسلام هنا أن يستخدم العلم لتأييد الحق، وتثبيت الخير لا لإذاعة الباطل، وإشاعة الشر، وتقوية الفساد، وتدمير الإنسان، فنحن حين ندعو إلى الإسلام لا ندعو إلى خرافة أو عجز أو جمود، لا ندعو إلى دولة الكهنوت أو حكومة الدراويش، نحن حين ندعو إلى الإسلام إنما ندعو إلى المنهج العلمي الصحيح، والتفكير المنطقي السليم، والعمل الإنساني الصالح، والخلق الإنساني الكريم، والتكافل الاجتماعي الفاضل، والسلام العالمي العادل، والحضارة الإنسانية المثلى، الحضارة التي تمزج بين الروح والمادة، وتوافق بين العقل والقلب، وتعدل بين الفرد والمجتمع، وتؤاخي بين الإنسان والإنسان، وقبل ذلك كله توثق الصلة بين الله والناس.

ثم إن الدين في حياتنا ليس شيئًا ثانويا ولا أمراً على هامش وجودنا، إنه الموجه الأول لأفكارنا وعوطفنا، والمنشئ الأول لأخلاقنا وتقاليدنا، والينبوع الأول

لعقائدنا وفلسفتنا في الحياة، إنه يجري منا مجرى الدم في العروق، ويسري في حياتنا مسرى العصارة في الأغصان الحية النضرة. إن الأمم كلها لو استغنت عن الدين ما استغنينا نحن عنه أبداً؛ لأننا به كنا وبغيره لن نكون.

وهنا التفت لصاحبي قائلاً: أحسب هذا القدر كافيًا في إلقاء الضوء على معوقك الأول.

قال: أجل هذا حسبي وكفى.

قلت: فلننتقل إلى المعوق الثاني.

قال صاحبي: أما المعوق الثاني فأراه ماثلاً (في ضعف المسلمين اليوم وتخلفهم في شتى الميادين)، فإن ذلك قد ألقى على كاهل الإسلام نفسه تبعة تخلفهم وضعفهم بحق أو بغير حق، مما جعل دعاة الإسلام في وضع لا يحسدون عليه، فلو كان المبدأ الذي يدعون إليه مصدراً للخير والسعادة والقوة؛ لنَضح على أهله، فكيف وهم في ذيل الأمم؟

قلت: أما ضعف المسلمين اليوم وتخلفهم فلا يقع على الإسلام منه مثال ذرة من لوم؛ فإنما كان يلام الإسلام لو أن المسلمين اليوم مستمسكون بدينهم متخلقون بأخلاقه، منفذون لشرائعه، حافظون لحدوده، حكامًا وشعوبًا، ولكن الإجماع منعقد على أن المسلمين بعيدون عن الإسلام الحق بعداً شديداً، كما أن شهادة التاريخ أن المسلمين يوم كانوا مسلمين حقا، سادوا الدنيا، وفتحوا الممالك، ودوخوا الجبابرة، وأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وتفتحت عليهم بركات السماء والأرض.

والمتتبع للمد والجزر في تاريخ الإسلام يجد المد والانتصار والقوة منوطة بالرجوع إلى هَدْي الإسلام بتوجيه إمام أو تأثير زعيم، أو قائد، يجدد للأمة أمر دينها، كما يظهر ذلك واضحًا أيام عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي، وأمثالهما.

وهذا ينتهي بنا إلى أن العلاج الفذ لما عليه المسلمون من ضعف وتمزق وانحطاط هو العودة إلى الإسلام الصحيح، كما دعا إلى ذلك المجددون الأصلاء مثل: جمال الدين والكواكبي ومحمد عبده ورشيد رضا وإقبال وحسن البنا وصادق الرافعي وعباس العقاد وغيرهم من المفكرين ودعاة الإصلاح.

المعوق الثالث: القوى المعادية للإسلام:

قال صاحبي: سلمت بما تقول، ولكن أذكر لك معوقًا من أشد المعوقات وأخطرها، ولا أظنك إلا موافقي عليه.

قلت: ليت شعري ما هو معوقك هذا؟

قال: إنك تؤمن معي أن القوى المعارضة للإسلام، والمعادية له، في الداخل والخارج، قوى ضخمة وهائلة، عدداً وعدة، ولا يمكن لهذه القوى أن تسمح بعودة الإسلام، كما لا يمكن لدعاته أن يصمدوا أمامها، وهم ضعفاء الحول والطول لا سند لهم من الشرق ولا من الغرب، بل نرى الجميع يختلفون في قضايا كثيرة، فإذا كان العدو هو الإسلام اتفقوا واتحدت كلمتهم، أما المذاهب الجديدة التي دعوت إلى استيرادها في أول الحديث فلكل مبدأ منها دول تشد أزره، وكتل تحمي ظهره، بل تغذي دعاته بالفكر والثقافة، وتمدهم بالتخطيط والتمويل، والتأييد والحماية الظاهرة والخفية، أين هذه من دعاة الإسلام الذين يعاديهم الأحزاب والحكومات، وتحاربهم قوى اليسار وتضطهدهم قوى اليمين، ويتهمهم العصريون بالتزمت، كما يتهمهم المتزمتون بالترخص في فهم الدين، وتقف في سبيلهم كل المعسكرات على اختلاف ألوانها واتجاهاتها اليهودية العالمية، والشيوعية الدولية، والصليبية الاستعمارية، ومن هنا، تراهم لا يخرجون من حفرة إلا ليسقطوا في مثلها أو أعمق منها، ولا يكادون ينفضون غبار محنة إلا استقبلوا أختها أو أشد منها؟؟

قلت: أما ما ذكرته فهو صحيح ١٠٠٪ ولكن هذا لا يقعدنا عن العودة إلى ديننا، ولا يثبطنا عن العمل له، فإن هذه القوى المحاربة للإسلام ودعوته ـ باتفاقنا جميعًا ـ قوى شريرة ظالمة، مبطلة، لا تبغي الخير لنا، ولا السيادة لأمتنا، قوى تسيرها دوافع الحقد علينا، والطمع فينا، والتربص بنا، والخوف من انتفاضاتنا، وتكتلنا حول إسلامنا.

إنني أخالفك تمامًا في اعتبار عداء هذه القوى لنا، معوقًا يثبطنا ويُيئسنا، بل أعتبره حافزًا يدفعنا إلى المقاومة والمصابرة، وسوطًا يلهب ظهورنا للمضي والمثابرة، إن عداء هذه القوى الشريرة في الداخل والخارج يزيدنا حرصًا على دعوتنا، وإصراراً عليها، واستقتالا في سبيلها، فإن هذه القوى لا تعادي إلا الحق،

ولا تحارب إلا الخير، ولا تقاوم إلا النور، وهنا يحضرني قول الشاعر العربي:

لقد زادني حبا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وإني شقي باللئام، ولا ترى ... شقيا بهم إلا كريم الشمائل [(١)]

قال صاحبي: أنا معك في أن هذه القوى على باطل، وأن عداءها لدعوة الإسلام يدل على أنما دعوة الحق والخير والنور، ولكن الذي أقوله: إن هذا الحق ضعيف الشوكة، مهيض الجناح، مفلول السلاح، فكيف يرجى أن تقوم له قائمة، وهذه القوى الجهنمية تقعد له كل مرصد، وتقطع على دعاته كل مسلك، وتزرع في طريقهم الأشواك والألغام؟

قلت: إن هذا المنطق من أساسه مرفوض عند دعاة الحق وأصحاب الرسالات، إنهم لا يقيسون الناس بالطول والعرض، ولا يقدرون الأمور بالكم والحجم، ولا يزنون القوة بالعدد والعدة، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من قوم غرتهم عدتهم واستحكاماتهم العسكرية، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

إن الإنسان إذا أيقن بالحق الذي يدعو إليه، واستقر الإيمان به في أعماق قلبه، لم يبال بالقوى المعادية له والواقفة في سبيله، فإن الحق قوي بذاته، وإن كانت الدنيا كلها ضده، والنصر له في النهاية إذا أصر دعاته عليه، وصبروا وصابروا من أجله، فإن الباطل قريب الغور، قصير النفس سريع الزوال، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[(٢)].

ولو كان رسل الله ودعاة الإصلاح يبالون بالقوى المعادية لهم؛ ما انتصرت في التاريخ دعوة حق ولا رسالة خير، فإن أكثرية البشر للأسف تميل مع الهوى، وتجنح إلى الباطل، وهذا ما قرره رب البشر بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[(٤)]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[(٥)]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(٦)].

---

(١) الطرماح بن حكيم شاعر إسلامي فحل من طيء، ولد ونشأ في الشام توفي نحو ١٢٥هـ.
(٢) سورة الرعد: الآية ١٧.
(٣) سورة غافر: الآية ٥٧.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٣.
(٥) سورة غافر: الآية ٥٩.
(٦) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

لقد قام محمد رسول الله يوم قام برسالته يدعو الناس كافة والعرب خاصة إلى دين غير دينهم، ووجهة غير وجهتهم، ونظام غير أنظمتهم، وأخلاق غير أخلاقهم، فهل ثناه عن دعوته وقوف الدنيا كلها في وجهه، ووجه القلة التي آمنت به واتبعته حتى رمتهم العرب عن قوس واحدة؟ وهل هناك مذهب ساد وانتصر إلا وسط قوى معارضة، وكتل معادية له؟ ألا ترى كيف انتصرت الشيوعية وغيرها من المبادئ الهدامة المخربة؟ ولم يكن معها إلا القليل من الناس والقليل من الإمكانات.

فما بالنا نريد الإسلام وحده في هذا العصر أن يظهر بين قوى مشجعة مؤيدة، تربِّت على كتفه وتصفق لدعاته، وتهتف لأنصاره: مرحى مرحى؟!

على أننا إذا تعمقنا في تقدير وزن القوى التي لنا والتي علينا؛ كانت كفة الإسلام بحمد الله أرجح وأثقل.

أ ـ فنحن بالإسلام نملك رصيداً ضخمًا ولا يمكن أن تملكه دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك. إن وراء الإسلام قوة الجماهير الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمدها، المتطلعة إلى من يقودها باسم الله ويضع يدها في يد رسول الله، وعندئذ تبذل المال عن رضا واغتباط، والروح عن طواعية وارتياح. إن هذه الأمة متدينة بفطرتها، وبتاريخها، والدين هو مفتاح شخصيتها، وصيقل مواهبها، وصانع بطولاتها، وسر انتصاراتها الكبرى، وهي أسرع استجابة إليه، والتفافا به من أي دعوة دخيلة جاء بها غاصب محتل، أو بذر بذورها طامع متربص.

ب ـ ونملك كذلك قوة المنهج الذي ندعو إليه، قوة مبادئ الإسلام العظيمة الخالدة، نملك القوة التي تتمثل في وضوحه وشموله وعمقه واتزانه وتأثيره، الإسلام عقيدة تخاطب العقل، وعبادة تزكي النفس، وأخلاق تلائم الفطرة، وأحكام تحقق التوازن والعدل، تطارد المفاسد، وتجلب المصالح، وتعطي كل ذي حق حقه.

ومن أبرز معالم القوة في هذا الإسلام: أنه ليس من وضع البشر، بل هو من تنزيل رب العالمين، وهذا العنصر الإلهي فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير، ومن العجز والقصور، الذي يصاب به دائمًا كل منهج يضعه البشر لأنفسهم.

وهذه الميزة أيضًا تجعله أدنى إلى القبول والإذعان له من جمهرة الناس؛ لأنه انقياد من الإنسان لربه، خلقه فسواه، وأمده بنعمته، وغمره برحمته، والذي يرجو مثوبته ويخشى عقابه، على عكس المبادئ الوضعية التي لا يطيعها الإنسان إلا خوفًا أو طمعًا، والتي يحاول أن يتهرب من سلطانها ما استطاع.

ومن أسباب قوة الإسلام أنه منهج نابع من أعماق الأمة، وليس دخيلاً ولا طارئًا عليها بحيث تحتاج إلى ضغط مادي أو معنوي حتى تسيغه وترضى بتجرع كأسه.

جـ- إن هذه القوة المذخورة في مبادئ الإسلام لا يعادلها إلا القوى المكنونة في حنايا أمة الإسلام.

تلك القوى التي انفجرت يومًا والمسلمون في ضعف وتفرق وخذلان، فحطمت الصليبيين في (حطين)، وهزمت التتار في (عين جالوت)، وأسرت لويس التاسع في (دار ابن لقمان) بالمنصورة.

إن الأجانب من المستشرقين والدارسين لطبيعة أمتنا، وخصائص ديننا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، وَهُمُ الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية، يحسبون لها ألف حساب، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها يومًا من الأيام. يقول البروفسور (جب) في كتابه (وجهة الإسلام): «إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئًا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها. إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد».

وكتب الرحالة الألماني (بول أشميد) كتابًا خاصًا بهذا الموضوع سماه (الإسلام قوة الغد) ظهر سنة ١٩٣٦م ومما قال فيه: «إن مقومات القوى في الشرق الإسلامي، تنحصر في عوامل ثلاثة:

١- في قوة الإسلام (كدين) وفي الاعتقاد به، وفي مثله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢- وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الذي يمتد به من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادي، على

حدود إندونيسيا شرقًا، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتي، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقًا إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣ـ وأخيرًا أشار إلى العامل الثالث وهو: خصوبة النسل البشري لدى المسلمين، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة [١].

ثم قال: «فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة، وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم؛ كان الخطر الإسلامي خطرًا منذرًا بفناء أوروبا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله».

ويقترح (بول أشميد) هذا بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية، كما تبلورت في تاريخ المسلمين، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم، أن يتضامن الغرب المسيحي شعوبًا وحكومات ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في أسلوب نافذ حاسم [٢].

وقال (روبرت بين) في مقدمة كتابه الذي سماه (السيف المقدس): «علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم؛ لأنهم حكموا العالم سابقًا، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة التي أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ. ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف القراء على أصل العرب، وسميته باسم السيف ذي النصلين الذي ناله محمد في وقعة بدر تذكارًا لانتصاره؛ لأن السيف أصبح رمزًا لمطالبه الإمبريالية» [٣].

وبغض النظر عما في هذا الكلام من تحامل، وما يغلي به من حقد، فهو يبين لنا مبلغ قوة المسلمين في نظر الأجانب عنهم.

واسمح لي أن أسوق لك مثلاً معاصرًا على القوة الذاتية في هذا الإسلام، ذلك

---

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل في العالم الإسلامي!

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهي.

(٣) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسيني عن هذا الكتاب.

المثل هو (تركيا). تركيا التي أراد أتاتورك وحزبه أن يعرّوها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمت بصلة إليه، حتى ألغى غطاء الرأس، وحتى الكتابة، فقد جعل غطاء الرأس إجباريا هو القبعة، وجعل حروف الكتابة هي اللاتينية، منع الكلام بالدين ولو في الأذان، وأباح للمسلمة أن تتزوج اليهودي أو النصراني، وسوى بين الذكر والأنثى في الميراث، وجعل القوانين كلها غربية لحمًا ودمًا وعظمًا، حتى القوانين التي تسمى «الأحوال الشخصية» وطوردت الثقافة الإسلامية والعربية، وحورب أهلها بل قوتلوا وقتلوا، وظن الناس أن شمس الإسلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد، وأن ظلّ الإسلام قد تقلص عنهم إلى غير رجعة، ومرت على ذلك عشرات من السنينَ جاءت راكدة، كفيلة بأن تميت الإسلام في الصدور، وأن تدب معها عقارب اليأس إلى القلوب.

ولكننا لم نزل نقرأ ونسمع عن امتداد قوة التدين هناك، وانكماش الإلحاد والإباحية وخفض صوتهما يومًا بعد آخر، رغم ما لديهما من إمكانات مادية وأدبية، وما يلقى دعاتهما من مساعدات داخلية وخارجية.

ولقد أدت انتفاضة الدين في تركيا أخيراً إلى سقوط حزب الكماليين، ونجاح حزب (العدالة) الذي له نزعة إسلامية واضحة.

وآية الآيات في هذا الدين وأثره في أمته، أنه أشد ما يكون قوة، وأصلب ما يكون عوداً، وأعظم ما يكون رسوخًا وشموخًا، حين تنزل بساحته الأزمات، وتحدق به الأخطار، ويشتد على أهله الكرب، وتضيق بهم المسالك، ويقل المساعد والنصير.

حينئذ، يحقق هذا الإسلام معجزته، فتنبعث الحياة من الجثمان الهامد، ويتدفق دم القوة في عروق الأمة، وينطلق جنود الحق انطلاقة المارد من القمقم، فإذا النائم يصحو، والسكران يفيق، والجبان يتشجع، والضعيف يقوى، والشتيت يتجمع، وإذا هذه القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك وهنالك، تكوّن سيلاً عارمًا، لا يقف دونه حاجز ولا سد من السدود.. برز ذلك كله في يوم الردة منذ فجر الإسلام، بعد موت النبي ﷺ وظهور المتنبئين الكذابين، من أمثال: مسيلمة وسجاح والأسود وطليحة، واتباع قبائلهم لهم عصبية لا اقتناعًا، حتى قال قائلهم: «والله لكذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر».

ومع ارتداد هؤلاء ظهر صنف آخر من العرب، يقرّ بنبوة محمد، وبالصلاة، ولكنه لا يعترف بالزكاة فريضة وعبادة، تؤدي لأحد بعد رسول الله، فما كان من أبي بكر - الرجل البكاء الرقيق الخاشع - إلا أن وقف كالطود، وأبى إلا أن يحارب الجميع، حتى يعودوا إلى دين الله الحق، في الوقت الذي كان أكثر الصحابة يقولون له: «يا خليفة رسول الله، الزم بيتك، واعبد ربك، حتى يأتيك اليقين، لا طاقة لنا بحرب العرب جميعهم» ومن هؤلاء عمر الفاروق، الذي زأر الصدِّيق في وجهه زارة الأسد الهصور: «أجبّار في الجاهلية، خوار في الإسلام ياعمر؟!». «أأرجو نصرتك فتجيئني بخذلانك؟!». «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، ما استمسك السيف بيدك».

وكان ما قال الصديق، وانطلقت كتائب الله تؤدب المتمردين، وترد الشاردين، وتأخذ حق الفقير بحدّ السيف من الممتنعين، وانهزمت الردة، وأنبياؤها الكذبة، وانتصر النور على الظلام، وعاد المتمردون إلى حظيرة الإسلام، أكثر إيمانًا، وأشد حماسًا، يريدون أن يكفروا عن سوء فعلتهم، فانضموا إلى الجنود الفاتحين، يحاربون أعتى إمبراطوريتين في الأرض: فارس والروم، وإذا هم في معارك الفتح أول المحاربين إقدامًا، وأسرعهم للفداء، وتلبية للنداء.

وقل مثل ذلك، حين غزا التتار ديار الإسلام، فدخلوها بجموعهم الغفيرة، وأساليبهم الوحشية، كما تدخل الريح العقيم، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾(١)، فدمروا المدن، وخربوا العمران، وأسالوا الدماء أنهارًا، وأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، وألقوا أسفار المكتبات في نهر دجلة حتى اسود ماؤها من كثرة ما سال من مداد الكتب التي ألفها علماء المسلمين، وأصبحت حضارة الإسلام بل حضارة البشر جميعًا، مهددة بهذا الغزو الوحشي الذي لا يبقي ولا يذر، والذي يذكرنا بما جاء في وصف يأجوج ومأجوج - ولعلهم صنف منهم - وظن الناس أن راية الإسلام قد نكست ولن ترتفع بعد اليوم، وأن أمة الفتح والنصر قد حُقت عليها الهزيمة، فهيهات أن تعود إلى الميدان من جديد.

ولم تكن تمض سنوات، حتى تحقّقت معجزة الإسلام، فإذا هؤلاء الجبابرة

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٢.

الذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام، وإذا سيف الغازي المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلامية العزلاء، وإذا الغالبون يدخلون أخيراً في دين المغلوبين!! على خلاف ما هو معروف ومألوف، وهو ما قرره ابن خلدون أن المغلوب هو المولع دائمًا بتقليد الغالب المنصور.

د ـ ونحن نملك ـ قبل ذلك كله ـ الإيمان بنصر الله لنا، والثقة بتأييده إيَّانا، واليقين بسنته تعالى في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولو كره المجرمون، والاطمئنان إلى وعده الذي وعد به المؤمنين العاملين: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [1]، ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [2]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [3]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [4].

ولئن كان وعد بريطانيا لليهود على لسان (بلفور) وزير خارجيتها، بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، قد جعلهم يجمعون العزم، ويحثون الخُطا، ويضاعفون الجهد، لتحقيق أمانيهم القديمة ـ على الرغم من نحو مائة مليون من المسلمين، مع أن يهود العالم كله لا يزيدون على بضعة عشر مليونًا ـ ألا يكون وعد الله لنا بالمعية والنصر والدفاع والتأييد والتمكين والاستخلاف في الأرض، جديراً بأن يشحذ منا الهمم، ويستثير العزائم، ويفعم صدورنا ثقة بالمستقبل، وإيمانًا بأن الدور لنا لا علينا، وأن التاريخ معنا، لا مع عدونا، وإننا لنحن المنصورون، وإن حزب الله لهم الغالبون.

إن الإيمان بالنصر من أعظم عناصر القوة، وما من شك في قيمة هذا العنصر المعنوي، فقد بخس النفس الإنسانية قدرها، وغمطها حقها، فقد أجمع رجال المعارك، قديمًا وحديثًا على أن للروح المعنوية أثرها الملموس، في تحقيق الظفر، والانتصار على العدو، وإن كان أقوى عتاداً، وأكثر نفراً.

---

(١) سورة النور: الآية ٥٥.
(٢) سورة الروم: الآية ٦.
(٣) سورة الروم: الآية ٤٧.
(٤) سورة الحج: الآية ٣٨.

ونحن بحكم إيماننا نجزم بأن الله تعالى قدير على أن ينصر حزبه، وجند دينه، ودعاة كتابه، وأنصار رسوله، بما شاء من وسائل نعلم منها ما نعلم، ونجهل منها ما نجهل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

إن كتاب الله يقص علينا من أنباء الرسل مع أقوامهم، ما يملأنا ثقة، بأن الحق لابد أن ينتصر، وأن الباطل لابد أن ينكسر، وأن صاحب الحق لا يظل ضعيفًا أبدًا، وأن الطاغية لا يستمر قويا أبدًا، فالدنيا دول، والحرب سجال، والعاقبة للمتقين.

ألم تقرأ في قصة موسى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٢).

وتنفيذًا لهذه الإرادة الإلهية في تحرير هؤلاء المغلوبين، بعث الله منقذ المستضعفين، وتحطم ملك فرعون، الذي قال للناس: أنا ربكم الأعلى.

وشاء الله أن يربي هذا المنقذ وليدًا في بيت الطاغية نفسه، الذي التقطه ليكون له عدوا وحزنًا، وكان من الأمر ما كان، وبطلت احتياطات فرعون، ونفذت إرادة الله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (٣).

لقد انتصرت القلة على الكثرة، وانتصر الضعفاء على الأقوياء، وانتصر موسى على فرعون، ذلك لأن موسى لم يكن وحده في المعركة، بل كان مع الله فكان الله معه؛ ولهذا حين اتبعه فرعون بجنوده بغيًا وعدوانًا، ونظر موسى والذين آمنوا معه، فإذا البحر أمامهم والعدو من خلفهم.

كان موقف موسى كما حدث القرآن عنه: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٤).

---

(١) سورة فاطر: الآية ٤٤.
(٢) سورة القصص: الآيات ٤ ـ ٦
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.
(٤) سورة الشعراء: الآيتان ٦١، ٦٢.

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] كلمة مؤمنة، قالها موسى بن عمران، تشبه الكلمة التي قالها أخوه محمد بن عبد الله ﷺ وهو في الغار، والمشركون على بابه، وصديقه ورفيقه أبو بكر يقول في إشفاق: «والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا»، فيقول الرسول في ثقة واطمئنان: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا»[2].

وتجلت معية الله لموسى، فأنجاه من عدو الله وعدوه بما لم يخطر على باله، ولا على بال عدوه: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾[3].

كما تجلت معية الله لمحمد في الغار، فرد عنه كيد المشركين بجند من أضعف جنده، بيض الحمام ونسج العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[5].

إن المؤمن لا يعرف اليأس أبداً، ولا يفقد الرجاء أبداً، وإن ادلهمت من حوله الخطوب، وتألبت عليه قوى الشر.

إنه واثق بربه، واثق بحقه، واثق بنفسه، واثق بغده، واثق بوعد الله له.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٦٢.
(٢) رواه البخاري من حديث أبي بكر الصديق في كتاب فضائل الصحابة (٣٦٥٣) وفي مناقب الأنصار (٣٩٢٢)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٠٠٩/ ٧٥).
(٣) سورة الشعراء: الآيات ٦٣-٦٦.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤١.
(٥) سورة التوبة: الآية ٤٠.

ومثله الأعلى في ذلك هو رسول الله ﷺ فقد كان في أحلك الأزمات، مؤمنًا بالنصر، كأنه أمامه رأي عينه.

روى البخاري عن خباب بن الأرت، قال: أتيت النبيﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه. فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه» (١).

فإذا كان رسول الله ﷺ لم ينقطع خيط الأمل من قلبه، ولم يتسرب إليه مثال ذرة من يأس في مستقبل دعوته، وانتصار رسالته، وانهزام أعدائه، وهو ضعيف مستضعف، يعذب أصحابه، ويطاردون، أو كما وصفهم الله: ﴿قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ (٢).

فكيف نضعف عنه أو نتخاذل أو نستسلم لليأس، ونحن نملك من أسباب القوة ما لا يملكه أعداؤنا، ولا يمكنهم أن يملكوه يومًا؟!

نملك قوة الشعوب المؤمنة بدينها، والتي لا ترضى به بديلاً يُستورد لها من الشرق أو الغرب.

ونملك قوة المنهج الذي ندعو إليه، منهج الإسلام الذي وضعه رب البشر للبشر، والذي برئ من كل غلو وتقصير عرف في مناهج البشر، وأنظمتهم الوضعية المقطوعة عن هَدي السماء، هذا المنهج الذي تؤكد الأيام شدة حاجاتنا إليه خاصة، وحاجة البشرية إليه عامة.

ونملك قوة الكفاح والصمود في الأمة الإسلامية، التي تبرز في الأزمات والمصائب أشد ما تكون، وأصلب ما تكون.

ونملك الإيمان بنصر الله تعالى، وتأييده ووعده الذي لا يتخلف أبدًا.

---

(١) البخاري في كتاب مناقب الأنصار (٣٨٥٢)، وأحمد في مسنده ٥/ ١٠٩.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٦.

أفليست هذه القوى التي نملكها يا صاحبي، أكبر وأخطر وأعظم من المعوقات التي تذكرها؟

وهل من الإنصاف أن يذكر الإنسان الأمور المعوقة، وينسى الأمور المعينة والميسرة؟

إن العدل يقتضيك إذا ذكرت جوانب الضعف ألا تنسى مصادر القوة، وإذا ذكرت عوامل اليأس ألا تغفل بواعث الأمل، وإذا ذكرت القوى المعارضة أن تذكر معها القوى المؤيدة.

فهل لديك اعتراض على هذا الذي قلته يا صاحبي؟

قال صاحبي: لا اعتراض ولا جدال، ولكن في النفس شيء صرحت ببعضه من قبل، ذلك هو المحن الشداد التي تصب على رءوس الدعاة إلى الإسلام، والضربات القاسية التي تنهال عليهم من هنا وهناك، فمن ذا الذي يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدين المشردين المعذبين قائمة، أو يرتفع لهم علم، أو ينتصر في الناس نظام يدعون إليه، ورسالة يؤمنون بها، وهم في كل يوم بين المطرقة والسندان؟

قلت لصاحبي: إن هذه المحن التي تذكرها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الإسلام، بل هي دليل حياة وحركة وقوة، فإن الميت الهامد لا يضرب، ولا يؤذي، إنما يضرب ويؤذي الحي المتحرك المقاوم.

إن الدعوة التي لا يضطهد أصحابها، ولا يؤذي دعاتها، دعوة تافهة أو ميتة، أو دعاتها ـ على الأقل ـ تافهون ميتون.

ثم إن هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه، مبدأ الإسلام، فهو يقدم كل حين شهداء في معاركه، يروون شجرته بدمائهم، ويبنون صرح مجده بأشلائهم.

وهذه المحن أبلغ معلم، وأعظم مرب، لأصحاب الدعوات، باعتبارهم أفرادًا،

تصفو أنفسهم بالشدة، وتتمحص قلوبهم بالمحنة، وقد جاء في الحديث: «مثل المؤمن يصيبه البلاء، كمثل الحديدة تدخل النار، فيذهب خبثها، ويبقى طيبها»(١).

وهي لجماعتهم محك للتمييز، ومصفاة للتنقية، وامتحان للإيمان؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ففي أيام الرخاء والعافية يكثر الأدعياء، ويتزاحم على الدعوات المرجوة طلاب المنافع، ومرضى القلوب، فتأتي هذه المحن لتنفي خبثهم من صفوف المؤمنين، كما نفث الخبث من صدور الأفراد، فهنا يتبين الصادق من الكاذب، ويتميز المخلص من المنافق ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(٢)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

هذا الصنف الذي يعبد الله على حرف، والذي جعل فتنة الناس كعذاب الله - أي يخاف من الأذى يصيبه من الناس كما يخاف من نار جهنم - صنف لا خير فيه، ولا فائدة من بقائه إلا خلخلة الصف، وتثبيط الآخرين، وتعويق العاملين، كما قال تعالى في مثلهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٤).

وإن مع منافع المحن حين تندلع نارها، أنها تحرق هذا الصنف، وتجعله رماداً، على حين تنضج الصنف الآخر وتصقله، وتجلو عنه كل غبش أو دخل داخله أيام الرخاء والسراء.

---

(١) الحديث رواه البزار في كشف الأستار من حديث عبد الحميد بن عبد الرحمن بن أزهر عن أبيه بلفظ: «مثل المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمى كمثل حديدة تُدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيّبها» ١/ ٣٦٢ (٧٥٦)، وقال الهيثمي في المجمع ٢/ ٣٠٢: رواه البرار والطبراني في الكبير وفيه من لا يعرف. ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي ١/ ٧٣، ٣٤٨، وتعقبه الألباني فقال: وسائر الرجال ثقات من رجال الشيخين، فالإسناد حسن، والحديث صحيح بما له من شواهد معروفة، الصحيحة ٤/ ٢٩٠، ٢٩١ (١٧١٤).

(٢) سورة الحج: الآية ١١.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ١٠.
(٤) سورة التوبة: الآية ٤٧.

ومن منافع المحنة أنها تقوي رابطة المؤمنين من حملة الدعوة إلى الله، بأن المحنة تضم إليهم عنصراً جديداً يجمعهم، ويوثق عرى الاتصال بينهم، فإذا كانت العقيدة هي الرابطة الجوهرية الأصلية، التي تحت لوائها يتجمعون ويتراصون كالبنيان، فإن المحنة عامل مساعد يزيد هذا الترابط قوة وعمقًا، فإن الإحساس بالخطر الواحد، مواجهة العدو الواحد، واصطلاء البلاء الواحد، من شأنه أن يزيل كل فجوة بين الصفوف، وأن يشعر الجميع بكمال الوحدة، وتمام التضامن.

ومن هنا قال السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله: «بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة»، وقال شوقي:

إن المصائب يجمعن المصابينا

ولقد امتحن الله المسلمين بالهزيمة في غزوة أحد، فقتل منهم سبعون من خيارهم، من أمثال: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وغيرهم من أبطال الإسلام.

وكانت هذه المحنة شديدة الوقع على أنفس المسلمين، فأنزل الله نحو ثمانين آية من سورة آل عمران، تثبيتًا وتعزية للمؤمنين، وهدى وموعظة للمتقين.

ولقد ذكر ابن القيم من حكم هذه المحنة وأسرارها شيئًا كثيراً نذكر منه ما يلي: «إن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم، جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن يكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا، لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله، أن جمع لهم بين الأمرين؛ ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به، مما يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة» (١).

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ...﴾(٢)، أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين؛ حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم

(١) زاد المعاد ٢/٢٤٩٩. ط. السنة المحمدية بمصر.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

(أحـد)، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾(١) الذي يميز بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في علمه وغيبه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم، وفي حال ظفر أعدائهم بهم؛ فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله، والدار الآخرة، فإذا أراد ربها ومالكها وراحمها كرامته؛ قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه المقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم؛ قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها ـ بعد كفرهم ـ بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم، وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾(٢) فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي، وابتغاء مرضاتي.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهي: تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس.

وأيضًا، فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي: محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم، أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٣) أي ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه، دون أن يقع معلومه.

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٣٩-١٤١. (٢) سورة النساء: الآية ١٠٤.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

هذه الأمة لن تموت

الأمـة:

(الأمة) : كلمة معرفة بـ (أل) العهدية، كما يقول علماء العربية، فهي تشير إلى معهود في الذهن، مرسوم في الفكر، محفور في القلب.

وهو الأمة، التي لا يعرف المسلم غيرها، فإليها ينتمي، وبها يعتز، وفي سبيل بقائها وكرامتها يجاهد، وأعني بها: (أمة الإسلام).

إنها الأمة الواحدة، التي تؤمن برب واحد: هو الله تعالى، وتؤمن بكتاب واحد: هو القرآن الكريم، وتؤمن بخاتم الرسل: هو محمد عليه الصلاة والسلام، وتتجه كل يوم خمس مرات إلى قبلة واحدة: هي الكعبة، بيت الله الحرام.

إنها تتكون من شعوب وقبائل في أقطار وأقاليم، ولكنها مع هذا تظل أمة واحدة، جمعتها العقيدة، وربطت بينها الشريعة، ووحدت بين أذواقها ومشاربها القيم والآداب الإسلامية، وعاشت تاريخًا مشتركًا في انتصاراته ومآسيه، وعانت حاضراً مشتركًا في آلامه وآماله.

ولهذا لا يجوز لنا أن نقول: (أمم إسلامية)، بل (شعوب إسلامية) لأمة واحدة، خاطبها الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾(١).

إنها أمة واحدة في الغاية والوجهة..

واحدة في الأفكار والمفاهيم..

واحدة في المشاعر والأحاسيس..

صَوَّر الرسول ﷺ وحدتها في ذلك فمثّلها بالجسد الواحد. إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وهي أمة متميزة بمقوماتها وخصائصها، ومن هذه الخصائص: أنها أمة (ربانية).

لم تنشأ بمجرد المصادفة، إنها وجدت في إقليم واحد، أو انتسبت إلى عنصر

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

معين، كبعض الأمم ولم تنشأ بإرادة فرد، أو إرادة حزب، أو إرادة طبقة، أو إرادة مجلس ثوري أو منتخب، إنما أنشأها الله لتؤدي رسالتها في الوجود كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾(١).

فالله هو الذي جعلها كذلك وأعدها لذلك، لتقوم بدورها في الناس.

خصائص متفردة:

ومن خصائصها: ما أشارت إليه الآية الكريمة وهو (الوسطية) فهي أمة وسط في كل شيء، في التصور والاعتقاد، وفي التعبد والتنسك، وفي القيم والأخلاق، وفي العمل والسلوك، وفي التشريع والتنظيم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي العلاقات كلها داخلة وخارجة، لا تهمل المادة لحساب الروح، ولا الروح لحساب المادة، ولا يضخم الفرد فيطغى على المجتمع ولا المجتمع فيطغى على الفرد، وإنما يعطي لكل جانب حقه، ويطالبه بواجبه في غير طغيان ولا إخسار، كما قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾(٢).

وهي أمة ذات رسالة عالمية، ليست أمة إقليمية ولا قومية، بل وضعها الله في مقام الأستاذية للبشرية كلها، والهداية للناس كافة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ . . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٣)، وقوله جل شأنه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(٤).

فهذه الأمة لم تنبت وحدها كالنبات البري أو الشيطاني، كما يسميه بعض الناس، إنما أنبتها منبت، وأخرجها مخرج، وهو الله جل جلاله، ولم يخرجها لتتقوقع على نفسها، وتعيش في حدودها، ولمنافعها المادية الخاصة، إنما أخرجها (للناس) كل الناس، بيضًا وسودًا، عربًا وعجمًا، أغنياء وفقراء، فهي أمة (مبعوثة) للعالمين، كما أن كتابها أنزل ذكرًا للعالمين، ونبيها أرسل رحمة للعالمين، وبعثة هذه الأمة بعثة رحمة ويسر، لا بعثة قسوة وعسر . .

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٢) سورة الرحمن: الآيتان ٨، ٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٤) سورة آل عمران. الآية ١١٠.

وقد خاطب الرسول ﷺ الأمة فقال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[1].

ولقد فقه الصحابة هذا المعنى، وأدركوا أنهم مبعوثون لهداية أمم الأرض، وعبر عن ذلك أحدهم، وهو: ربعي بن عامر - في مواجهة رستم قائد الفرس، محدداً مهمة الأمة في عبارات بليغة موجزة: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

أمة خالدة:

ومن خصائص هذه الأمة: أنها أمة خالدة، بخلود رسالتها وكتابها، فهي باقية ما بقي الليل والنهار، دائمة ما دام في الدنيا قرآن يتلى، وإذا كان القرآن محفوظاً بحفظ الله، فأمة القرآن باقية ببقاء القرآن.

وقد تكفل الله تعالى لرسوله الكريم ألا يهلك أمته بما أهلك به أمماً من قبلها، بالعقوبات القدرية، والنوازل الكونية، كالطوفان والخسف والمسخ والريح الصرصر، وغير ذلك.

وتكفل له كذلك ألا يسلط عليها عدواً من غيرها، يستأصل شأفتها، ويقتلعها من جذورها، إلا أن يهلك بعضها بعضاً، ويذوق بعضهم بأس بعض[2].

وكما تكفل الله لرسوله أن يحفظ أمته من الهلاك الحسي بعذاب الاستئصال، تكفل له بحفظها من الهلاك المعنوي بالاجتماع على الضلال، ففي الحديث: «إن الله لم يكن ليجمع أمتي على ضلالة»[3].

وسر ذلك أنها آخر الأمم، كما أن نبيها آخر الأنبياء، وكتابها آخر الكتب، فليس بعد محمد رسول، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد الإسلام شريعة، ولا بعد أمة الإسلام أمة.

---

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة ٢/ ٢٨٢، والبخاري في الوضوء (٢٢٠) وفي الأدب (٦١٢٨).

(٢) رواه مسلم من حديث ثوبان في كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩/ ١٩).

(٣) رواه الترمذي من حديث ابن عمر في كتاب الفتن بلفظ: «إن الله لا يجمع أمتي. أو قال: أمة محمد ﷺ - على ضلالة» (٢١٦٧) وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

فإذا اجتمعت أمة بعد الأمم، قبل الإسلام على الضلال لم يكن في ذلك خطر على البشرية؛ لأنها أمة محدودة المكان موقوتة الزمان، بخلاف الأمة الإسلامية، فلها من عالميتها وخلودها ما يجلعها ممتدة في المكان حتى تعم الشرق والغرب، وممتدة في الزمان حتى قيام الساعة، فلو ضلت كلها لضلت بها الشريعة جمعاء، دون أمل في تغيير، إذ ليس معها ولا بعدها من يحمل للناس هداية الله.

ومن ثم كان من عمل العناية الإلهية، أن تظل في هذه الأمة فئة تحيا على الحق وتموت عليه، وهي بمثابة سفينة الإنقاذ، أو جيش الخلاص، وهي التي تحفظ التوازن، وتمسك البناء أن ينهار وفيها جاء قول الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» (٢).

هذه الطائفة هي منار السائرين، ودليل الحائرين، وقوة المستضعفين، وهم الذين يقومون لله بالحجة، ويدعون إلى الله على بصيرة، ويبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله.

وهم (الغرباء) الذين يُصْلحون إذا فسد الناس، ويُصلحون ما أفسد الناس، وهم (الفرقة الناجية) بين الهالكين، المهتدون بين السالكين، الذين يحيون ما كان عليه الرسول وأصحابه، ومن رحمة الله بالناس أن تبقى فيهم مثل هذه الفئة المختارة الموكلة من الله تعالى، تعلّم من يجهل، وتهدي من يضل، وتذكّر من ينسى، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٣).

ورحم الله أحمد شوقي حين قال:

إن الذي خلق الحقيقة علقمًا ... لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨١.

(٢) رواه البخاري من حديث المغيرة بن شعبة في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١١).

(٣) سورة الأنعام: الآية ٨٩.

ومن دلائل الخلود لهذه الأمة، أن الكوارث والنكبات لا تحطمها ولا تقتلها، بل تبعث فيها روح المقاومة والتحدي، فتراها إذا نزلت بها النوازل القاصمة، أشد ما تكون قوة، وأصلب ما تكون عوداً، حتى إن الناس ليظنون بها الظنون، ويحسبونها في عداد الهلكى، فإذا هي في فترة وجيزة، تتغلب على عوامل الضعف المحيطة بها، بروح القوة المكنونة في داخلها، وإذا بالذين يرقبونها من بعيد، أوينظرون إليها من قريب، يرون انتصاراً بعد انكسار، واجتماعاً بعد شتات، وحياة وحركة بعد جمود أشبه بالموات.

١ـ رأينا ذلك في فجر الإسلام، في حروب الردة وقتال المتمردين على دفع الزكاة.

٢ـ ورأيناه في عصور التمزق للدولة الإسلامية، في مقاومة غزوات التتار الوحشية، الذين أقبلوا من الشرق كأنهم يأجوج ومأجوج، أو كأنهم الريح العقيم ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (١).

٣ـ وفي مقاومة الحروب الصليبية التي زحفت فيها أوروبا على الشرق الإسلامي بقضها وقضيضها وثالوثها وصليبها، فقتلت وأفسدت ودمرت، ما يعلمه كل دارس لتلك المرحلة من التاريخ.

ولكن القوة الذاتية الكامنة في أمة الإسلام، لم تلبث أن ظهرت في وقائع تاريخية حاسمة، فحطمت أحلام الصليبيين في حطين. . وفتح (بيت المقدس) بعد أن بات أكثر من تسعين عامًا أسيراً في يد الغزاة، وأسر (لويس التاسع) ملك فرنسا في (دار ابن لقمان) بالمنصورة، وارتد التتار مدحورين في (عين جالوت) بعد أن كان الناس يعتبرونهم (القوة التي لا تقهر) حتى شاع بين الناس القول: إذا قيل: إن التتار انهزموا فلا تصدق. . !

وفي العصر الحديث، رأينا الجهاد البطولي، ضد الغزاة المستعمرين، في سائر ديار الإسلام، جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الفرنسيين، والأمير عبد الكريم الخطابي ضد الأسبان، والبطل عمر المختار ضد الطليان، والشيخ عز

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٢.

الدين القسام ضد الإنجليز واليهود، مروراً بثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة، والقناة ضد الإنجليز.

العملاق ينتفض:

واليوم نرى العملاق الإسلامي ينتفض بعد طول ركود ورقود، فإذا هو جهاد مستبسل في أفغانستان وقتال في أرتيريا والفليبين، وعمل فدائي في فلسطين، ويقظة في مصر وسورية وتركيا، وشباب مثقف يتجه بقوة ووعي إلى الإسلام في الشرق والغرب، متحديًا رواسب القديم، وفتنة الجديد، معتصمًا بإيمان الأقوياء، وقوة المؤمنين.

وهذه الدلائل كلها من هنا وهناك، تعبر بوضوح عن خلود هذه الأمة، وقوتها وأصالتها، بالرغم مما قد يبدو على سحنتها من مظاهر الوهن والهزال.

إن الأجانب من المستشرقين والدارسين لطبيعة أمتنا، وخصائص ديننا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية، يحسبون لها ألف حساب، بل يساورهم وَهْم مفزع من خشية انطلاقها يومًا من الأيام. يقول البروفيسور (جب) في كتابه: (وجهة الإسلام): «إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة؛ فهي تنفجر انفجاراً مفاجئًا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها. إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها، إلا صلاح الدين من جديد».

وكتب الرحالة الألماني (بول أشميد) كتابًا خاصًا بهذا الموضوع سماه (الإسلام قوة الغد) ظهر سنة ١٩٣٦م. ومما قال فيه: إن مقومات القوى في الشرق الإسلامي تنحصر في عوامل ثلاثة:

١ـ في قوة الإسلام (كدين) وفي الاعتقاد به، وفي مُثله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢ـ وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الذي يمتد من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادي، على حدود إندونيسيا شرقًا.

وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتي، لايدع المسلمين في حاجة مطلقًا إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣ـ وأخيراً أشار إلى العامل الثالث وهو: خصوبة النسل البشري لدى المسلمين مما جعل قوتها العددية قوة متزايدة (١).

ثم قال: «فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم، كان الخطر الإسلامي خطراً منذراً بفناء أوروبا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله».

ويقترح (بول أشميد) هذا، بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية، كما تبلورت في تاريخ المسلمين، وتاريخ ترابطهم وزحفهم، لرد الاعتداء عليهم، أن يتضامن الغرب المسيحي شعوبًا وحكومات، ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في أسلوب نافذ حاسم (٢).

وقال (روبرت بين) في مقدمة كتابه الذي سماه (السيف المقدس): «علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم؛ لأنهم حكموا العالم سابقًا، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة التي أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ، ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف القراء على أصل العرب، وسميته باسم السيف ذي النصلين، الذي ناله محمد في وقعة بدر، تذكاراً لانتصاره، لأن السيف أصبح رمزاً لمطالبه الإمبريالية»(٣).

ويغض النظر عما في هذا الكلام من تحامل، وما يغلي به من حقد، فهو يبين لنا مبلغ قوة المسلمين في نظر الأجانب عنهم، وتؤكد تلك الحقيقة الكبيرة: أن هذه الأمة قد تضعف، ولكنها لا تموت، فقد ناط الله بها رسالة الخلود.

---

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل في العالم الإسلامي!

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهي في إحدى محاضراته، وقد ترجم الكتاب كله فيما بعد الدكتور محمد عبد الغني شامة، تحت عنوان: الإسلام قوة الغد العالمية. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٣) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسيني عن هذا الكتاب.

ما الذي نحتاج إليه ؟

أمنية عمرية

أو حاجتنا إلى رجال

في دار من دور المدينة المباركة جلس عمر إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله، ثم قال عمر: تمنوا، فقال رجل آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله وأتصدق به، ثم قال: تمنوا، فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين؟

فقال عمر: ولكني أتمنى رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله.

رحم الله عمر الملهم، لقد كان خبيراً بما تقوم به الحضارات الحقة، وتنهض به الرسالات الكبيرة، وتحيا به الأمم الهامدة.

إن الأمم والرسالات تحتاج إلى المعادن المذخورة، والثروات المنشورة، ولكنها تحتاج قبل ذلك إلى الرءوس المفكرة التي تستغلها، والقلوب الكبيرة التي ترعاها والعزائم القوية التي تنفذها: إنها تحتاج إلى الرجال.

الرجل أعز من كل معدن نفيس، وأغلى من كل جوهر ثمين؛ ولذلك كان وجوده عزيزاً في دنيا الناس، حتى قال رسول الله ﷺ: «إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» (١).

الرجل الكفء الصالح هو إكسير الحياة، وروح النهضات، وعماد الرسالات، ومحور الإصلاح.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

أعد ما شئت من معامل السلاح والذخيرة، فلن تقتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب، وصغ ما شئت من القوانين واللوائح، فستظل حبراً على ورق ما لم تجد الرجل الذي ينفذها، وضع ما شئت من مناهج للتعليم والتربية، فلن يغني المنهج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه، وأنشئ ما شئت من لجان، فلن تنجز مشروعًا إذا حرمت الرجل الغيور!!

ذلك ما يقوله الواقع الذي لا ريب فيه.

إن القوة ليست بحد السلاح بقدر ما هي في قلب الجندي، والعدل ليس في نص القانون بقدر ما هو في ضمير القاضي، والتربية ليست في صفحات الكتاب بقدر ما هي في روح العالم، وإنجاز المشروعات ليس في تكوين اللجان بقدر ما هو في حماسة القائمين عليها.

فلله ما أحكم عمر حين لم يتمن فضة ولا ذهبًا، ولا لؤلؤاً ولا جوهراً، ولكنه تمنى رجالاً من الطراز الممتاز الذين تتفتح على أيديهم كنوز الأرض، وأبواب السماء.

إن رجلاً واحداً قد يساوي مائة، ورجلاً قد يوازي ألفًا، رجلاً قد يزن شعبًا بأسره، وقد قيل: رجل ذو همة يحيي أمة.

حاصر خالد (الحيرة) فطلب من أبي بكر مدداً، فما أمده إلا برجل واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي، وقال: لا يهزم جيش فيه مثله، وكان يقول: لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف مقاتل!

واستمد عمرو بن العاص - وهو في مصر - عمر بن الخطاب فبعث إليه بأربعة آلاف، على رأسهم أربعة من رجالات الإسلام، عد كل واحد منهم بألف رجل.

ولكن ما الرجل الذي نريد؟ هل هو كل من طر شاربه، ونبتت لحيته من بني الإنسان؟ إذن فما أكثر الرجال!!

إن الرجولة ليست بالسن المتقدمة، فكم من شيخ في سن السبعين وقلبه في سن السابعة، يفرح بالتافه، ويبكي على الحقير، ويتطلع إلى ما ليس له، ويقبض على

ما في يده قبض الشحيح حتى لا يشركه غيره، فهو طفل صغير، ولكنه ذو لحية وشارب، وكم من غلام في مقتبل العمر، ولكنك ترى الرجولة المبكرة في قوله وتفكيره وخلقه.

مر عمر على ثلة من الصبيان يلعبون فهرولوا، وبقي صبي مفرد في مكانه، هو عبد الله بن الزبير، فسأله عمر: لِمَ لم تعد مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم أقترف ذنبًا فأخافك، ولم تكنَ الطريق ضيقة فأوسعها لك!

ودخل غلام عربي على خليفة أموي يتحدث باسم قومه، فقال له: ليتقدم من هو أسن منك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان التقدم بالسن لكان في الأمة من هو أولى منك بالخلافة.

أولئك لعمري هم الصغار الكبار، وفي دنيانا ما أكثر الكبار الصغار!!

وليست الرجولة ببسطة الجسم، وطول القامة، وقوة البنية، فقد قال الله عن طائفة من المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (١) ومع هذا فهم ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ (٢)، وفي الحديث الصحيح: «يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ (٣).

كان عبد الله بن مسعود نحيفًا نحيلاً، فانكشفت ساقاه يومًا ـ وهما دقيقتان هزيلتان ـ فضحك بعض الصحابة: فقال الرسول: «أتضحكون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد» (٤).

ليست الرجولة بالسن ولا بالجسم ولا بالمال ولا بالجاه، وإنما الرجولة قوة

(١، ٢) سورة المنافقون. الآية ٤.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب التفسير (٤٧٢٩)، ومسلم في صفات المنافقين (١٨/٢٧٨٥) والآية من سورة الكهف ١٠٥

(٤) رواه أحمد في مسنده عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ١/ ٤٢٠، ٤٢١، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح، وهو في مجمع الزوائد ٩/ ٢٨٩ وقال. رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق ٦٠/ ٣٩ (٣٩٩٢).

نفسية تحمل صاحبها على معالي الأمور، وتبعده عن سفسافها، قوة تجعله كبيراً في صغره، غنيا في فقره، قويا في ضعفه، قوة تحمله على أن يعطي قبل أن يأخذ، وأن يؤدي واجبه قبل أن يطلب حقه: واجبه نحو نفسه، ونحو ربه، ونحو بيته ودينه وأمته.

الرجولة بإيجاز: هي قوة الخلق وخلق القوة.

إن خير ما تقوم به دولة لشعبها، وأعظم ما يقوم عليه منهج تعليمي، وأفضل ما تتعاون عليه أدوات التوجيه كلها من صحافة وإذاعة، ومسرح وخيالة، ومسجد ومدرسة، هو صناعة هذه الرجولة، وتربية هذا الطراز من الرجال.

ولن تترعرع الرجولة الفارعة، ويتربى الرجال الصالحون، إلا في ظلال العقائد الراسخة، والفضائل الثابتة، والمعايير الأصيلة، والتقاليد المرعية، والحقوق المكفولة، أما في ظلام الشك المحطم، والإلحاد الكافر، والانحلال السافر، والحرمان القاتل، فلن توجد رجولة صحيحة، كما لا ينمو الغرس إذا حرم الماء والهواء والضياء.

ولم تر الدنيا الرجولة في أجلى صورها وأكمل معانيها كما رأتها في تلك النماذج الكريمة التي صنعها الإسلام على يد رسوله العظيم، من رجال يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع لا يغريهم الوعد ولا يلينهم الوعيد، لا يغرهم النصر، ولا تحطمهم الهزيمة:

من الرجال المصابيح الذين همو ... كأنهم من نجوم حية صنعوا

أخلاقهم نورهم، من أي ناحية ... أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

أما اليوم، وقد أفسد الاستعمار جو المسلمين بغازاته السامة الخانقة من إلحاد وإباحية، فقلما ترى إلا أشباه الرجال، ولا رجال.

أعجبتني وآلمتني كلمة لرجل درس تعاليم الإسلام السمحة الشاملة فقال في إعجاب مرير: «يا له من دين لو كان له رجال»!!

وهذا الدين الذي يشكو قلة الرجال يضم خمسمائة [1] مليون من المسلمين ينتسبون إليه، ويحسبون عليه، ولكنهم ـ كما قال رسول الله ﷺ: «غثاء كغثاء السيل» [2]، أو كما قال الشاعر:

يثقلون الأرض من كثرتهم ... ثم لا يغنون في أمر جلل

وماذا يغني عن الإسلام رجال أهمتهم أنفسهم، وحكمتهم شهواتهم، وسيرتهم مصالحهم. رجال يعتقدون أن شعوبهم مجموعة من الأصفار لا يصلحون إلا أتباعًا، ولا يحيون إلا أذنابًا، فلا وثقوا بأنفسهم، ولا اعتمدوا على ربهم. رجال يجمعهم الطمع، ويفرقهم الخوف، أو كما قيل: يجمعهم مزمار وتفرقهم عصا! رجال كأنهم صنعوا من زجاج، فلا يستر عورة، ولا يتحمل رمية حصاة؟

أما والله لو ظفر الإسلام في كل ألف من أبنائه برجل واحد فيه خصائص الرجولة، لكان ذلك خيرًا له وأجدى عليه من هذه الجماهير المكدسة التي لا يهابها عدو، ولا ينتصر بها صديق:

فليت لي بهمو قومًا إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانًا وركبانًا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

(١) كان هذا هو تعداد المسلمين حين كتب هذا المقال سنة ١٩٥٦م، أما اليوم فقد أربى عددهم على المليار.

(٢) من حديث رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان

القوة التي لا تغلب

قال الطالب لأستاذه المربي: خبرني عن أعظم قوة عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ، لا شك أنك تعتقد مثلي أنها قوة الصاروخ والقنبلة الذرية؟

قال الأستاذ المعلم: مهلاً أيها الفتى الطالب، لا تسألني وتعجل بالجواب قبلي.

قال الطالب: معذرة يا أستاذي، إني أريد أن أسمع منك.

قال الأستاذ: دعني أسألك سؤالا آخر: أيهما أعظم قوة: القنبلة والصاروخ، أم الذي صنع القنبلة وأطلق الصاروخ؟

قال الفتى: لا شك أن صانع القنبلة ومطلق الصاروخ أقوى منهما!!

قال الأستاذ: إذن فأنت معي أن قوة الإنسان أعظم من كل قوة مادية في الأرض.

قال الطالب: نعم. فالإنسان هو الذي سخر المادة لمنفعته، ويوجهها لما يريد.

قال الأستاذ المربي: فإذا وجدت قوة توجه الإنسان وتدفعه إلى الأمام، وتحفزه إلى العمل الدائب، وتقذف به كالقنبلة، أو أقوى، وتطلقه كالصاروخ، أو أشد؟!

قال الطالب في عجلة: إنها لاشك تكون أعظم قوة عرفها الإنسان في هذه الأرض، فما هي هذه القوة؟ وما حقيقتها؟ لقد شوقتني إليها بحديثك عنها!!

قال الأستاذ المربي: إنها يا بني قوة الإيمان.

قال الفتى الطالب: الإيمان بأي شيء؟ فإن بعض الناس يجعلون الإيمان بأي مبدأ هو الإيمان.

قال الأستاذ: لا أنكر أن مطلق الإيمان بأي معتقد كان يعطي صاحبه قوة وصلابة، كما يظهر ذلك في الصراع بين الأفراد والجماعات، فالفرد الذي يؤمن بعقيدة ما ينتصر على الفارغ الذي لاعقيدة له، والجماعة التي ترتكز حياتها على إيمان ما ـ ولو لم تكن له أسس مفهومة ـ تنتصر في النهاية على الجماعة الخاوية من الاعتقاد، ولكن الإيمان الذي أعنيه هو الإيمان بالله واهب الحياة، وخالق الكون والإنسان، الإيمان بالجزاء والخلود في حياة باقية توفى فيها كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون، الإيمان بعالم فسيح غير منظور، مليء بجند الله لا يحصى لهم عدد، إنهم الملائكة المقربون، الإيمان بالوحي الإلهي، وهو الصلة التي تربط

السماء بالأرض، ومظهر هداية الخالق للخلق، الإيمان بالنماذج الإنسانية العليا، أولئك هم النبيون الذين أنزل الله عليهم وحيه، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

الإيمان بأن الكون لا يسير جزافًا، ولا تمضي حوادثه بغير هدى ولا تقدير، بل كل شيء فيه بقدر، وكل صغير وكبير مستطر.

الإيمان بكرامة الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض واستعمره فيها، وابتلاه بالتكليف في دار الدنيا، ليصهره ويعده للخلود في الدار الآخرة.

ذلك يا بني هو الإيمان الذي دعا إليه النبيون والمرسلون، وجاهد في سبيله الصديقون والشهداء والصالحون، وهو المعنى الفذ الذي نريده من كلمة (الإيمان). إنه الإيمان كما جاء به الإسلام.. واسترسل الأستاذ يتحدث، والطالب الفتى يصغي إليه في شوق ولهفة: هذا الإيمان يا بني، قوة دافعة موجهة، قوة تسند الضعيف أن يسقط، وتمسك القوي أن يجمح، وتعصم الغالب أن يطغى، وتمنع المغلوب أن ييأس وينهار!

قال الطالب الفتى: لكنك يا أستاذي حدثتنا من قبل أن في الإنسان قوة أخرى عاتية شديدة العتو والجبروت، تلك هي قوة الغرائز، كغريزة حب البقاء، وغريزة الشهوة الجنسية، وغريزة الغضب والمقاتلة.

قال الأستاذ الشيخ: أجل يا بني، أنا لم أنس حديثي هذا، ولا أنكر أن للغرائز البشرية سطوتها وقوتها، ولكنها بجوار الإيمان تفقد سيطرتها، وتنحل عقدتها، وتنحني مطواعة لقوة الإيمان، فالإيمان هو السيد الآمر المطاع، والغرائز هي الخادمة المنقادة له، المسخرة بأمره. أتريد أن أضرب لك مثلاً من التاريخ.

قال الطالب: نعم. فقد حفظنا عنك: «بالمثال يتضح المقال».

قال الأستاذ: هل أتاك حديث سيدنا يوسف الصديق، لابد أنك سمعت قصته في سورة يوسف في القرآن الكريم، إنها قصة مؤمن أخضع غريزته لإيمانه، فخلد الله ذكره، وسجل قصته لتكون هدى ونبراسًا للآخرين.

يوسف شاب في ريعان الشباب ومقتبل العمر، أوتي من الشباب والجمال حظا كبيراً، وامتلأ فتوة ونضرة ونشاطًا، وقدر القدر له أن يُبتلى بالخدمة في بيت امرأة

عزيز مصر، ولكن شبابه وجماله أغرى به المرأة التي هو في بيتها، فراودته عن نفسه وغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك! كان الموقف دقيقًا ولا ريب، فإن الفتنة التي عرضت ليوسف لم تكن من الفتن التي تعرض للمرء ساعة في حياته ثم تزول، إنما هي فتنة تصابحه وتماسيه، وتراوحه وتغاديه، لم تكن فتنة امرأة من بنات الليل وبائعات الهوى، بل كانت فتنة امرأة ذات منصب وجمال وحيلة ومقدرة، وهي سيدة البيت، وامرأة العزيز، وهو: غلام شُري بثمن بخس دراهم معدودة، لا يعرف له أهل ولا بيت، مجرد خادم في بيتها، من شأنه أن يؤمر فيأمر.. فماذا صنع الفتى يوسف أمام هذا الإغراء وأمام هذه الفتنة؟

قال الفتى الطالب لأستاذه: هذا والله يا أستاذ موقف صعب وامتحان رهيب لإيمان يوسف.

قال الأستاذ: أجل كان الامتحان عسيراً، ولكنه انتهى بنجاح يوسف، كان صوت الغريزة القوي يدعوه أن يهم بها كما دعا المرأة أن تهم به، ولكن صوت الإيمان في ضميره كان أقوى، لقد زجرها بهذه الكلمات الواعية حين قال: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١).

ولقد حاولت المرأة مرة أخرى أن تمكر به وتجبره على قبول رغبتها الآثمة أمام نسوتها قائلة: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾(٢).

وكان يوسف بين محنتين: أن يمتحن في دينه فيقع في الفاحشة والإثم المبين، أو يمتحن في دنياه وحريته فيسجن ويكون من الصاغرين.

قال الطالب في لهفة: فماذا اختار يوسف؟!

قال الأستاذ: لقد هداه منطق الإيمان أن يؤثر سلامة دينه على سلامة دنياه. فدعا ربه كما حدثنا القرآن قائلاً: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة يوسف. الآية ٢٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣٢.

(٣) سورة يوسف. الآية ٣٣

قال الطالب لأستاذه: وماذا حدث ليوسف بعد ذلك؟

قال الأستاذ: استجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، وسلم له دينه الذي حرص عليه، أما دنياه فلم تسلم، فقد سجنوه ظلمًا، ولبث في السجن بضع سنين، بيد أن ظلمة السجن لم تطفئ النور الذي في قلبه، ولم تنسه أنه مؤمن صاحب رسالة، فظل في السجن يدعو إلى توحيد الله، وينفر رفقاءه في السجن من الوثنية المحرفة. وينتهز الفرصة لذلك كلما سنحت، كما قال للفتيين اللذين سألاه في تأويل حلم أوتفسير رؤيا، فأنبأهما بعض ما علمه الله من الغيب ثم قال: ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

قال الطالب: وماذا كانت عاقبة هذا السجين المؤمن؟

قال الأستاذ: إن العاقبة يا بني دائمًا للمؤمنين المتقين، هذه سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا، لقد احتاج القوم إليه احتياج الجاهل إلى العالم، والمريض إلى الطبيب، والملاح التائه إلى النجم الهادي، فلم يجدوا بدًا من أن يذهبوا إليه صاغرين، ويطلقوا سراحه، وهو يأبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن تظهر براءة صفحته أولاً.. وخرج من السجن نقي الذيل، مرفوع الرأس، ناصع الجبين: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢).

وأصبح سجين مصر بالأمس عزيزها اليوم، والمتصرف في مالياتها وتموينها إبان أزمة ومجاعة اجتاحت مصر وما جاورها من الأقطار.

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٣٧-٤٠.
(٢) سورة يوسف الآيات ٥٤-٥٦.

وكان هذا المنصب امتحانًا آخر لإيمان يوسف، فإن الإنسان يمتحن بالنعـ
يمتحن بالمصيبة.

قال الطالب: وكيف يمتحن بالنعمة والامتحان إنما هو ابتلاء؟

قال الأستاذ: أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْـ فِتْنَةً ﴾(١)؟ إن بعض الناس قد يملك نفسه عند الشدة فيصبر ولا يجزع، فإذا ا بالنعمة بطر واستكبر وركبه الغرور، ولكن يوسف الذي صار عزيزًا، لم يتغ يوسف الذي كان سجينًا.

إنه ملك الدنيا ولكنها لم تملكه، وسيطر على خزائن مصر، ولكنها لم ت على قلبه، لقد كان إذا وضع أمامه الطعام أكل منه لقيمات تقيم الأود ولا يـ فلما سئل عن ذلك قال: أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الفقراء!

ومرة أخرى ظهر إيمان يوسف الصديق حين تمكن من إخوته لأبيه أولئك أرادوا أن يقتلوه ليخلوا لهم وجه أبيهم، ثم ألقوه في غيابة الجب، ثم باعوه بخس دراهم معدودة، وعرضوه للذل والعبودية.

لقد جاءوا مصر من فلسطين يطلبون المدد والزاد، وقدر يوسف على الا منهم، ولكنه عفا وغفر وقال: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ الرَّاحِمِينَ ﴾(٢).

وبعد أن تمهدت ليوسف الوزارة والرئاسة، وقرت عينه بوصول أبويه وإخـ تطلعت نفسه التواقة إلى ما هو أعز من الوزارة وأبقى من الملك - إلى رضوا تعالى، والسعادة بلقائه في دار الخلود، فتوجه إلى الله بدعائه المأثور: ﴿ رَ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِـ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٣).

ذلك يا بني نموذج من نماذج الإيمان القوي، فيه أسوة للشباب، وعبرة ا الألباب، وحجة على الجاحدين، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥ (٢) سورة يوسف. الآية ٩٢.
(٣) سورة يوسف: الآية ١٠١.

هل نحن مؤمنون؟

سألني صاحبي وهو مسلم مثقف، له إلمام بالمعرفة الدينية فقال: هل يناقض كلام العاقل فعله؟ قلت: لا، ما دام واعياً لكلامه، قاصدًا لفعله، ولم هذا السؤال؟

قال: هذا السؤال مقدمة لسؤال آخر طالما ألح على فكري، وحاولت أن أجد له جوابًا، ولعلي الآن أجد عندك الجواب الشافي.

قلت: وما سؤالك؟

قال: أليس القرآن كلام الله تعالى؟

قلت: بلى.

قال: أليس ما يجري في هذا الوجود فعل الله تعالى؟

قلت: بلى.

قال: فلمَ نرى الواقع في هذا الوجود يناقض المسطور في كتاب الله؟

قلت: هذا لا يحدث، فسر لي ما تقول.

قال: نحن نقرأ في القرآن قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (1)، وتقرأ في صفحة الواقع أن المؤمنين مخذولون مستضعفون، وتقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (2)، ونرى في الواقع أن المؤمنين أذلاء مستعبدون، ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (3) ولكننا ننظر حولنا فنرى للكافرين ألف سبيل وسبيلاً، وقرأ آيات أخر مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (4)، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (5)، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (6)، إلى غير ذلك من الآيات.. ومع هذا نجد القوة والسيادة والمجد من نصيب الكفرة والملحدين، والضعف والتخلف والهوان من نصيب المؤمنين! فما تفسير ذلك، وما تأويله؟

---

(1) سورة الروم: الآية ٤٧.
(2) سورة المنافقون: الآية ٨
(3) سورة النساء: الآية ١٤١.
(4) سورة الحج: الآية ٣٨.
(5) سورة محمد: الآية ١١.
(6) سورة الأنفال: الآية ١٩.

قلت: إن تأويل هذه الآيات بين غاية البيان، إن كل ما ضمنته هذه الآيات من النصر والعزة والسيادة والتأييد الإلهي إنما ضمنته للمؤمنين، ولم تضمنه لكل من يدعون الإيمان، ويتسمون بأسماء أهل الإسلام، فالمدار على المسميات لا على الأسماء، والعبرة بالحقائق لا بالدعاوي.

قال صاحبي: أفهم من هذا أننا لسنا مؤمنين؟

قلت: إذا كان الإيمان هو النطق بالشهادتين، والمحافظة على بعض شعائر الإسلام، فنحن مؤمنون، وإن كان الإيمان هو التحقق بالأوصاف التي ذكرها القرآن للمؤمنين، فبيننا وبين إيمان القرآن مراحل ومراحل.

إن المؤمنين الذين تكفل الله لهم بالنصر والمعونة والتأييد ـ في آيات كتابه ـ لهم صفات ذكرها القرآن نفسه، جلى بها عقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم، التي استحقوا بها تكريم الله تعالى دعوته وتسديده، وليس من الإنصاف أن نذكر ما وعد الله به المؤمنين في القرآن، ثم نطلب تفسير المؤمنين من غير القرآن.

قال صاحبي: بلى، والله، فَبَيِّن لي من هم المؤمنون في نظر القرآن؟

قلت: استمع إلى هذه الآيات النيرة من كتاب ربك: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[1]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ..﴾[2].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[4]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[5]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤.
(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ١، ٢.
(٣) سورة التوبة: الآية ٧١.
(٤) سورة الحجرات: الآية ١٠
(٥) سورة الحجرات: الآية ١٥.
(٦) سورة النور: الآية ٥١.

استمع إلى هذه الآيات وإلى غيرها ـ وما أكثرها في القرآن ـ ثم انظر في واقع هذه المئات من الملايين من المنتسبين للإسلام، فماذا ترى؟ هل ترى ـ بربك ـ إلا قومًا أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، أفئدتهم عن الله مشغولة، وصلتهم بالله مقطوعة: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (١)، استعلن فيهم المنكر، واستخفى المعروف، بل صار فيهم المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، بل أصبح فيهم من يأمر بالمنكر، ومن ينهى عن المعروف.

ثم ارجع البصر كرتين في هذه الملايين الستمائة(٢)، فسترى بينها ملايين أفسدها الغلو الطائفي، وملايين أفسدها التضليل الحزبي، وملايين أفسدها الاستبداد السياسي، وملايين أفسدها الغزو الفكري، وملايين عزلها الاستعمار الشيوعي، وملايين جهّلها الاستعمار الصليبي، وملايين أخرى لا هم في العير ولا في النفير، في غفلة هم لاهون، وفي غمرة ساهون ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣).

هل تستطيع بعد ذلك إلا أن تقول ما قاله الشاعر قديمًا (٤):

ما أكثر الناس، بل ما أقلهمو! الله يعلم أني لم أقل فندا!

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا!

قال صاحبي: صدقت في كل ما ذكرت، ولكن، ألسنا أقرب إلى المؤمنين الصادقين من اليهود؟ فلماذا انتصروا، ولماذا غلبنا (٥).

قلت: إن اليهود انتصروا بقدر ما اعتبروا بسنن الله في الخلق، والاعتبار بسنن الله جزء مهم من الإيمان، وقد ضيعناه نحن، وحفظوه هم، لقد استيقظوا ونمنا، وتعلموا وجهلنا، وجدوا وتخلفنا، وتعاونوا وتخاذلنا، وأعدوا العدة للغد، ونسينا نحن واجب اليوم. وبذل القوم العرق والدم، ولم نبذل نحن غير الدمع، فأي الفريقين في هذا الموقف أقرب إلى منطق الإيمان الحق؟

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٤

(٢) كان هذا هو تعداد المسلمين حين كتبت هذه الكلمة، أما اليوم فقد أربى عددهم على المليار.

(٣) سورة النحل: الآية ٢١.

(٤) هما لدعبل الخزاعي، انظر: (شعر دعبل بن علي الخزاعي)، تحقيق: عبد الكريم الأشتر.

(٥) في سنة ١٩٤٨م فقد كتبت هذه الكلمة قبل حرب ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧م بسنين طويلة.

إن سنن الله في الرقي والهبوط، والنصر والهزيمة، لا تظلم أحداً، ولا تحابي أحداً، من أخذ بأسباب النصر ظفر به ولو كان يهوديا، ومن سلك طريق الهزيمة أدركته ولو كان إلى الإسلام منتسباً.

هل أضرب لك مثلاً بالمسلمين في معركة أحد؟ لقد غلطوا غلطة دفعوا ثمنها سبعين شهيداً، فيهم حمزة عم الرسول ﷺ، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وغيرهم من المؤمنين الأبطال، ولم يغن عنهم أن قائدهم رسول الله ﷺ، وأن أعداءهم عباد الأوثان..

وسجل ذلك القرآن، وهو الحكم العدل، على المسلمين فقال: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

ثم قلت لصاحبي: هل تريد أن أزيدك إيضاحًا؟

اقرأ معي هذه الآيات الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ (٢)، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٣)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤).

هل علمنا بهذه الآيات؟ إننا لم نأخذ حذرنا، بل أخذنا على غرة، وفوجئنا بمخططات الصهيونية العالمية تواجهنا، ونحن في غفلة من أمرنا.. ولم نعد ما استطعنا من قوة، إلا ما اشترينا من أسلحة فاسدة، ترتد إلى الضارب قبل أن تتجه إلى المضروب... وهكذا غفلنا عن أسلحتنا وأمتعتنا فمالوا علينا ميلة واحدة، كما ذكر القرآن الكريم (٥).

ولما لقينا عدونا لم نثبت كما أمر الله الذين آمنوا، ولم نذكر الله كثيراً ـ بل ولا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٥.
(٢) سورة النساء: الآية ٧١.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٦٠.
(٤) سورة الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦.
(٥) إشارة إلى قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ الآية ١٠٢.

قليلاً ـ ولم نطع الله ورسوله، بل ذهبنا نرفه عن الجنود بالغناء الماجن، والرقص الخليع، ولم نحذر ما نهى الله عنه من التنازع، ففشلنا، وذهبت ريحنا.

فكيف بعد ذلك نضع أنفسنا في عداد المؤمنين الذين عناهم القرآن؟ وكيف ننتظر ما وعد الله، ولم نف بما شرط الله؟!

إنه لمجون منا أن نطلب نصر الله ونحن لم ننصر الله، وأن نطلب منه جزاء المؤمنين، ولا نطلب من أنفسنا أوصاف المؤمنين؟ إن علينا أن نصدق الله فيصدقنا الله، أعني أن نكون مؤمنين حقا، نرضى بالله وحده ربا، وبالإسلام منهجًا، وبالرسول قدوةً، وبالقرآن إمامًا، وأن نبرأ من العبودية لغير الله في كل شيء: في عقائدنا، في أخلاقنا وسلوكنا، في تشريعنا ونظم حياتنا.

بهذا الإيمان وحده نظفر بالسعادة والنصر والعزة التي كتبها الله للمؤمنين في الدنيا، فضلاً عن رضاه ومثوبته في الآخرة.

قال صاحبي: صدقت لعمر الحق، ولكن، ألا يوجد مؤمنون صالحون؟

قلت: بلى، ولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، ولكنهم قليل، وهم مع قلتهم مبعثرون كالحبات المتناثرة لم ينتظمها عقد، وكثير منهم أدركه اليأس من الإصلاح، فألقى السلاح، وترك الميدان للغزو الفكري الكافر الفاجر الماكر، وبعضهم اكتفى بالعويل والنواح، والبكاء على الأطلال، والاستغراق في الحوقلة والاسترجاع، دون أن يقدموا شيئًا جادا أو عملاً إيجابيًا، وبعضهم وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وضعفوا واستكانوا، وبعضهم... وبعضهم...

قال صاحبي: وما الحل إذن؟

قلت: الحل عند هؤلاء المؤمنين الصالحين.

الحل أن يتنادى هؤلاء بالعودة إلى الإسلام الصحيح، عقيدة، وشريعة، وأخلاقًا، ويذكروا بذلك قومهم، مبشرين ومنذرين، فبالإسلام وحده ينتصرون ويسودون، به وحدتهم وقوتهم، وفيه ـ دون غيره ـ عز الدنيا وسعادة الآخرة.. وأن يوحد هؤلاء جهودهم لتحرير أمتهم من الجمود القديم، والتحلل الجديد، والكفر الزاحف عليهم، سافرًا حينًا، ومقنعًا أحيانًا. وأن يكون هؤلاء الغيورون

على علم بطبيعة عصرهم، ومتطلبات زمانهم، وأحوال مجتمعهم، وما يتنازعه من تيارات، وما يكتنفه من مشكلات، فيواجهوها بمنطق العلماء الدارسين المتخصصين، لا بعقلية المقلدين أو المهرجين. . وأن يتسلحوا بالصبر واليقين لمقاومة تلك الموجة المادية الطاغية التي اكتسحت ديار المسلمين، وغزت عقولهم وقلوبهم بصورة مفزعة، حتى سماها داعية إسلامي كبير [1] (ردة ولا أبا بكر لها).

فإذا صبروا على حر المعركة بينهم وبين الباطل، وأيقنوا بصدق ما معهم من آيات الله، وآثروا الله ورسوله والجهاد في سبيله على كل ما يحرص الناس عليه من أهل وعشيرة ومال ووطن، استحقوا أن يجعلهم الله أئمة، ويجعلهم الوارثين، ويمكن لهم في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [2].

قال صاحبي: فإذا تخلى هؤلاء المؤمنون الصالحون عن القيام بهذا الواجب، ماذا يكون المصير؟

قلت: إنه مصير مخوف مرعب، حددت معالمه آية من كتاب الله وتركته آية أخرى مجهولاً مرهوبًا، لتذهب النفس في تصوره كل مذهب، أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3].

وأما الآية الثانية فهي قوله جل شأنه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [4].

---

(١) هو العلامة المربي الزاهد القدوة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله).
(٢) سورة السجدة: الآية ٢٤.
(٣) سورة التوبة. الآية ٣٩.
(٤) سورة التوبة. الآية ٢٤.

طريق ... لا طريق غيره

قال لي صاحبي وقد أخذ منه اليأس والغضب كل مأخذ: ما بالنا نتعثر ونتخبط ولا ننجو من هوة إلا لنسقط في مثلها أو أعمق منها؟ لقد كدت أحسب الضعف والتخلف والانحطاط أوصافًا ذاتية لنا، لا أعراضًا طارئة علينا، وكدت أكذب ما قرأته وسمعته عن تاريخنا المجيد، ومجدنا التليد. . فمالنا كالثور في الساقية، يلف ويدور والمكان الذي انتهى إليه هو الذي ابتدأ منه؟

قلت: أتدري ما سر ذلك يا صاحبي؟ سر ذلك: أننا نعالج الأمراض الخبيثة بالمسكنات الوقتية، لا بأدويتها الناجعة، ولهذا نعالج مشكلة بخلق أخرى، ونسد بابًا من الشر لنفتح بابين أو أكثر، نعالج مشكلة الاقتصاد على حساب مشكلة الأخلاق، ونهتم بالرقي المادي على حساب الرقي الروحي، نعمل للتحرر من الكتلة الغربية فنقع فريسة للكتلة الشرقية، نحاول اللحاق بالغرب، فنأخذ منه ما ينفع وما يضر، وما يحب وما يكره، وما يحمد وما يعاب، ولم نفرق بين ما يصلح لنا وما لا يصلح، وما ينبغي وما لا ينبغي، ناسين أن الغرب نفسه يشكو آلامًا داخلية قاسية، تكاد تزهق روحه، ويعاني مشكلات إنسانية تكاد تدمر عليه حضارته وتأتي عليها من القواعد. إننا فيما ندعيه من نهضتنا وإصلاحنا أشبه بالذي يتداوى من داء بداء، أو بالذي يقضي الديون القديمة بديون جديدة، وقديمًا قال الشاعر:

إذا ما قضيتَ الدَّين بالدين لم يكن ... قضاء ولكن كان غرمًا على غرم

وقال آخر:

إذا استشفيت من داء بداء ... فاقتل ما أعلك ما شفاكا

قال صاحبي: وما العلاج إذن وهذه حالنا؟

قلت: العلاج يا صاحبي أن نهتدي إلى حقيقة أنفسنا، أن نحدد شخصيتنا، ونعرف من نحن في هذا الوجود، ما رسالتنا، وماذا نريد أن نكون؟ فإن أردنا أن

نكون مسلمين عاملنا الناس على هذا الأساس، وطلبنا الدواء لدائنا من طب الإسلام وعلاجه، وإن لم نرد أن نكون مسلمين، أعلنا ذلك في صراحة، وحددنا موقفنا من أنفسنا ومن غيرنا على هذا الأساس أيضًا.

قال صاحبي: وهل نملك إلا أن نكون مسلمين؟ إن الإسلام هو ديننا ولاشك، ولقد ولدنا مسلمين وعشنا مسلمين وسنحيا مسلمين، ونموت مسلمين ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (١)

قلت: إن مصيبتنا أننا نزعم الإسلام دينًا لنا كأفراد، ودينًا رسميا لبعض دولنا تنص عليه دساتيرها، ومع هذا لا نريد أن نكون مسلمين.

إننا مسلمون بأسمائنا، بشهادات ميلادنا، وبعض الشعائر التي تربط بعضنا بدينه، نحن مسلمون (رسميون) أو (جغرافيون) بحكم وجودنا في أرض الإسلام، ولكن الواقع أن حياتنا ليست إسلامية، بل هي خليط غير متجانس من الإسلام والمادية والوثنية، والتبعية الفكرية والروحية.

قال صاحبي: وماذا يطلب منا لكي نكون مسلمين حقا؟

قلت: إذا عرفنا ما هو الإسلام عرفنا ماذا ينقصنا لنكون مسلمين.

الإسلام ـ إن كان لابد من تقسيم تعاليمه ـ شعب أربع:

١ـ شعبة العقائد: من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٢ـ شعبة العبادات: من صلاة وزكاة وحج وتلاوة ودعاء واستغفار.

٣ـ شعبة الأخلاق والقيم: من العفاف والإحصان، والعدل والإحسان، والبر والرحمة، والصدق والأمانة، والحياء والوفاء، والشجاعة والسخاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، وإيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

والمساكين وابن السبيل، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، إلى آخر ما أفاض فيه الكتاب والسنة، من أخلاق الإسلام، وشعب الإيمان، ومقامات الإحسان.

٤ـ شعبة النظم والشرائع: التي قام عليها الفقه الإسلامي، وفصل العلائق القانونية بين الناس بعضهم وبعض أفرادًا وأسرًا وجماعات ودولاً.

فخبرني ـ بربك ـ هل راعينا تعاليم الإسلام في هذه الشعب الأربع، ونفذناها وأقمنا عليها حياتنا؟

قال صاحبي: نحن نأخذ منها وندع.

قلت: إن الذي ندعه ونتركه أضعاف الذي نأخذه ونعمل به، وكثيراً ما نأخذ القشور وندع اللباب، وما نأخذ الصورة وندع الحقيقة، ولعمري ماذا يبقى لنا من إسلامنا إذا كنا نستورد الأفكار والقيم، ونستورد الآداب والتقاليد، ونستورد الأنظمة والقوانين، لتحل محل أفكارنا وعقائدنا وآدابنا ونظمنا؟

قال صاحبي: ولكننا نسمع دائمًا أن الإسلام بخير.

قلت: نعم هو بخير في نفوس جماهير المسلمين وأكثريتهم الساحقة؛ لأنه جزء أصيل من كيانهم العقلي والنفسي والحضاري، وهم يوقنون أن لا قيام لهم بدونه، ولا عزة لهم بغيره، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بالاستمساك بعروته الوثقى، وتعاليمه المثلى.

قال صاحبي: فكيف إذن انصرفوا عنه، واتخذوه مهجوراً، ونبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون؟؟

قلت: الحق أن الإسلام نحي عن حياة أهله قسراً، وعزل عن توجيه مجتمعهم كرهًا، بلا إرادة ولا اختيار منهم، وإنما فرض ذلك عليهم عدو دخيل ماكر خبيث.

قال صاحبي: ولكن هذا العدو والمستعمر اللئيم قد حمل عصاه ورحل عن ديار الإسلام.

قلت: إنما رحلت جيوشه وعساكره، أما آثاره ومخلفاته الفكرية والنفسية

والتشريعية والاجتماعية، فلا زالت قائمة سامقة تتحدى دين المسلمين وشريعتهم، ولا رال ربائبه وتلاميذه الذين رضعوا من لبان ثقافته، وغذوا من موائد فكره، وربوا في أحضان مدارسه، وتحت سلطان دعاته ومبشريه لا زالوا منتشرين في ديارنا، بل هم القابضون على أزمة التوجيه والقيادة الفكرية والسياسية والإدارية حتى لم يعد يُستفتى الدين إلا في مسائل الوضوء والصلاة، أو قضايا الرضاع والطلاق ونحوها. . أما سياسة الحكم، ونظام الاقتصاد والاجتماع، ومناهج التربية والتثقيف، وشئون الدستور والقوانين، فليس للإسلام أن يفتى فيها، إلا أن يؤيد ويبارك ويدعو للمسئولين بالنصر المبين. . . وأكثر من ذلك أن الأفكار المادية المستوردة تعمل جاهدة لتطارد عقيدة (لا إله إلا الله) من ضمائر المسلمين، وتطارد آثارها في حياتهم.

قال صاحبي: وما الطريق؟

قلت: العمل الدائب بتجرد وإخلاص للعودة بالمسلمين إلى الصحيح، الإسلام كله: عقيدة وشريعة، وأخلاقًا وحضارة كاملة متميزة.

ذلك هو الطريق ولا طريق غيره.

في العالم الإسلامي اليوم صيحات تتجاوب أصداؤها من المحيط إلى المحيط، تنادي بالعودة إلى الإسلام، الإسلام خالصًا من الشوائب، سالمًا من الزوائد، بعيدًا عن الغلو والتقصير، تنادي هذه الصيحات بالإسلام وحده بلا شركة، والإسلام كله بلا تجزئة: عقيدة روحها التوحيد، وعبادة روحها الإخلاص، وأخلاقًا روحها الخير، وشريعة روحها العدل، وحضارة روحها التوازن.

ومن الناس من إذا سمع هذه الصيحات يغلي صدره غيظًا، ويتفجر قلبه حقدًا، لأنه يكره للإسلام أن يسود، ويكره لأمته أن تقود، ويكره لمجده أن يعود، فهو عدو للإسلام، ناقم على أهله، لا يسره أن تقوى أمته من ضعف، أو تنهض من عثرة، أو تجتمع من شتات.

وهذا الصنف لا حديث لنا الآن معه، فإنه لا يرضيه شيء إلا دمار الإسلام وأهله، وما أصدق ما قال معاوية: أستطيع أن أرضي كل الناس إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي.

وقال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إماطتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد!

وصدق الله إذ قال في مثل هؤلاء: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (1).

وهناك صنف آخر، لا يحقدون على الإسلام ولا يكرهون أهله، ولكنهم يخافون من عودة الإسلام، وكلما سمعوا التنادي بالرجوع إليه، توجست صدورهم خيفة، بل ارتعدت فرائصهم رعبًا؛ لأن رءوسهم حملت عن الإسلام فكرة خاطئة، صنعها الجهل، وضخمها الوهم، وزينها الهوى، فكرة ورثوها عن عصور التخلف، وعهود الانحطاط، صورت لهم الإسلام جبرية في العقيدة،

---

(1) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

وشكلية في العبادة، وسلبية في الأخلاق، ،وجموداً في الفكر، وركوداً في الحياة، فهو بهذا يعارض العلم، ويقعد عن العمل، ويعوق التقدم، ويرفض الاجتهاد، ويقتل الابتكار، ويخدر الشعوب!

الذين يحقدون على الإسلام:

يقول بعض هؤلاء بصريح العبارة: أتريدوننا أن نوقف عجلة (التطور) لنجمد في مكاننا؟ وأن نوقف قطار (التقدم) لنرجع القهقري؟

أتريدوننا أن نعود إلى السلبية التي تدع الأمور تجري إلى أعنتها، وتضع عبء كل انحراف أو فساد على كاهل القدر؟ وتقضي على كل مقاومة للطغيان والطغاة تحت عنوان الرضا والصبر على البلاء؟ وتشيع في الناس عبارات منومة مخدرة مثل: دع الملك للمالك، واترك الخلق للخلق! أو: الله أقام العباد فيما أراد؟!

أتريدوننا أن تعودوا بنا إلى عصور ترى السلاطين ظل الله في الأرض، إن أحسنوا فلهم منا الشكر، وإن أساءوا فعلينا الصبر، وليس من حقنا أن نقول لهم: (لِم) أو (لا).

أتريدوننا ونحن في بداية القرن الحادي والعشرين أن نتراجع إلى القرن السابع من الميلاد؟

ويعبارة أخرى: أتريدوننا أن نعود إلى الوراء أربعة عشر قرنًا من الزمان؟!

أتريدوننا أن ندع عصر الذرة، و(الكمبيوتر) وغزو الفضاء والصعود إلى القمر لنرجع إلى عصر الجمل سفينة الصحراء؟!

لا اتهام بغير برهان:

والعجيب أن يقول هذا الكلام قوم يلبسون رداء(العلمية) ويُزهَون به، ومع هذا يسمحون لأنفسهم أن يستخدموا الأساليب (الخطابية) أو (الإنشائية) في مقامات لا تغني فيها دعوى بلا بينة، ولا اتهام بغير برهان. إن القضايا الكبيرة لا يفيد فيها إلا القواطع، ولا تغني فيها الظنون فإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

ومما لا يجهله عاقل أن الزمان ـ كالمكان ـ وعاء للأحداث، أي لعمل الإنسان فيه، خيراً كان أم شراً، صوابًا أم خطأ، فالزمان في ذاته لا يوصف بخيرية ولا شرية إلا من باب المجاز، كما يقول علماء البلاغة، حين يذكر المحل ويراد الحالُّ فيه.

ومن هنا ينبغي ألا يكون اهتمامنا بالمفاضلة بين زمان ماض وزمان حاضر، أو مستقبل، إنما يكون تركيزنا على ماذا كان في الماضي، وما هو كائن في اليوم، وماذا عسى أن يكون في الغد.

وأحب أن أؤكد هنا حقيقة هي أوضح من الشمس في رابعة النهار، وهي أن الإسلام ليس ماضيًا، كماضي الفراعنة في مصر، أو الفينيقيين في سورية، أو البابليين في العراق، إن الإسلام هو الماضي، وهو الحاضر، وهو المستقبل، إنه كلمة الله الباقية، ومنهجه الخالد، ونوره المتجدد للبشر، إنه نور كنور الشمس، يظهر كل يوم جديداً، ولكنه يضرب في القدم إلى غور بعيد.

أما مفهوم المسلمين لهذا الإسلام القديم الجديد، وتطبيقاتهم له خلال القرون فنحن نأخذ منها وندع، وفقًا للمعايير الموضوعية التي هدانا إليها كتاب الله وسنة رسوله، فنحن ننتقي من هذا التراث العريض الرحيب أفضل ما فيه، ونقتبس منه ما ينفعنا في ترشيد مسيرتنا، وندع منه ما نرى أنه أخطأ الحق، أو جار عن الصراط، إذ لسنا ملزمين باتباع أحد غير رسول الله ﷺ الذي ضمن الله له العصمة فيما يبلغ عنه، وكل واحد بعد ذلك يؤخذ منه ويرد عليه، كائنًا من كان.

الذين يتلمسون للبراء العيب:

ومن هنا لا يجوز لعاقل منصف أن يبحث في تراثنا عن أسوأة ما فيه ثم يقول: أتريدوننا أن نرجع إلى هذا؟

قال لي بعضهم يومًا: أتريدوننا أن نعود إلى عهد الأمير الذي قال: من قال لي: اتق الله، ضربت عنقه؟!

قلت: بل إلى عهد الخليفة الذي قال: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

ندعو إلى عهد عمر الذي قال على المنبر: رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوب نفسي.. وقال على الملأ: من رأى منكم في اعوجاجًا فيقومني.

وإلى عهد الخليفة الذي قال من قبله : إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم!

وقال آخر: أتريدوننا أن نعود إلى عهد الحجاج الذي هدد الناس بالسوط يلهب الظهور، وبالسيف يقطع الأعناق، حين قال في خطبته الشهيرة: والله لأضربنكم ضرب غرائب الإبل. . . وإني لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها!

قلت: ومَن من دعاة الحل الإسلامي يؤيد طغيان الحجاج أو يبارك عودة مثله، وهم لم يذوقوا الصاب والعلقم إلا من الطغاة والجبارين من (حجاجي) هذا العصر؟! وإن كان الحجاج أشرف من هؤلاء خصومة، وأنبل سيرة بيقين!

ولماذا لا نقول: إننا نريد العودة إلى عهد عمر بن عبد العزيز الذي قال للناس عندما ولي الخلافة: إنما أنا واحد منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا!

والواقع أننا وجدنا من دعاة (العلمانية)، و(التقدمية) من نصب نفسه محاميا عن جبروت الحجاج، وصب جام سخطه على عمر بن عبد العزيز، الذي اعتبره أئمة الإسلام خامس الراشدين!

الحل الإسلامي.. ندعو إلى حوار علمي:

إننا ندعو هؤلاء المرتابين في الحل الإسلامي، المتوجسين خيفة من العودة إلى الإسلام، ندعوهم إلى حوار علمي هادف هادئ، حوار بيننا وبينهم، أعني أنه حوار بين طرفين لكل منهما حقه في التعبير عن نفسه، والدفاع عن وجهة نظره، وليس حوارًا من طرف واحد، كالذي دعا إليه بعضهم على صفحات إحدى الصحف الكبرى، في بعض البلدان العربية، حول تطبيق الشريعة الإسلامية، فصالوا وجالوا كما يشاءون، دون أن يؤذن للأقلام المعارضة أن تكتب، إلا في إطار محدود، ولنوع معين من الناس، فليت شعري ما قيمة مبارزة لا يسمح فيها للخصم بالنزول إلى الميدان؟ وما معنى سباق يعدو فيه جواد واحد؟!

لن نصنع كما صنعوا، بل نناديهم بملء أفواهنا أن تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، تعالوا نبحث بحثًا موضوعيا منصفًا، بعيدًا عن التعصب للقديم أو التعبد للجديد.

تعالوا نحلل مضمون الدعوة إلى الإسلام: ماهو؟ وما فحواه؟ أهو عودة بالإنسانية إلى الوراء؟ أم انطلاقة بها إلى الأمام؟ أهو دعوة إلى الجهل والتخلف أم دعوة إلى العلم والتقدم؟

إن كل من عرف الإسلام عرف أنه دين العلم والحضارة، وكل من قرأ القرآن أيقن أنه خطاب: ﴿ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (١)، وآيات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢)، وهدى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣)، وأن المؤمنين هم (أولو النهى) و (العلم)، والكفار به قوم ﴿ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ (٤)، و﴿ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥)، ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(٦).

ليس في العالم دين كالإسلام أودع الله فيه من السعة والمرونة، وأسباب القوة، وعناصر الخلود، ما تصلح به الحياة، ويرقى بهدايته الإنسان في كل زمان ومكان، على الرغم من تطور المجتمعات، وتقلب الأحداث، وتغير المعارف والأفكار.

ذلك أن الذي شرع هذا الدين هو خالق هذا الإنسان، فمن المحال أن يشرع هذا الخالق من الدين ما يعوق الإنسان عن الحركة والتحرر والترقي، إلا أن يكون هذا الخالق على غير علم بما يسود هذا الكون من قوانين، وما يحكم فطرة هذاالإنسان من سنن، أو يكون على علم بذلك، ولكنه لا يريد للإنسان الرقي والتقدم والخير. وتعالى الله ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٧)، ﴿ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (٨) عن هذا وذاك.

الدين الحق ليس ضد التطور:

إن الدين الحق لا يمكن أن يقف ضد التطور النافع، وإذا كان التاريخ قد سجل على بعض الأديان ورجالها وقوفها في وجه هذا التطور، فذلك لأنها لم تعُدْ دين

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٠
(٢) سورة النحل: الآية ١٢.
(٣) سورة الرعد: الآية ٣.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٥.
(٥) سورة البقرة. الآية ١٧٠.
(٦) سورة الفرقان: الآية ٤٤.
(٧) سورة يوسف: الآيتان ٨٣، ١٠٠.
(٨) سورة الطور. الآية ٢٨

الله الحق، بل حرفت وبدلت، وفقدت أصالتها وسموها، وكانت أديانًا موقوتة، فلم يتكفل الله بحفظها.

وأبرز مثل لذلك: المسيحية في الغرب، فقد وقفت الكنيسة هناك تؤيد الجهل ضد العلم، والخرافة ضد الفكر، والملك ضد الشعب، والقوي ضد الضعيف، فلما أدرك الغرب قبس من النور، جاء في الأصل من الشرق المسلم؛ تمردت عليها الجماهير الثائرة على الظلم والظلام، وحكمت على رجال الكهنوت، حكمها على رجال الظلم والجبروت فقالوا: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس!!

أما الإسلام فقد شاء الله أن يكون هو الرسالة العامة الخالدة للإنسانية كلها بعد أن بلغت أشدها، واستحقت أن ينزل عليها هذه الرسالة، فلاعجب أن قامت منذ أول يوم على احترام العقل والفكر، والإنكار على التقليد والجمود والدعوة إلى العلم والحكمة، والاحتكام إلى البرهان والحجة، والإشادة بفضل العلم وأهله، والرجوع إلى ذوي المعرفة والخبرة، والترغيب في العمل والحركة، والترهيب من القعود والبطالة.

ولا عجب أن نجد كتاب الإسلام الخالد ـ القرآن الكريم ـ يحدثنا ـ في قصة أبي البشر ـ عن العلم باعتباره المؤهل الأول للخلافة في الأرض، وبه تفوق آدم على الملائكة.

ويحدثنا في قصة نوح عن صناعة السفن، وفي قصة داود عن إلانة الحديد وصناعة الدروع.. وفي قصة سليمان عن صناعة الجن له ما يشاء.

ويحدثنا عن التخطيط الاقتصادي ـ لمدة أربع عشرة سنة ـ في قصة يوسف.

كما يحدثنا في قصة ذي القرنين عن صناعة السدود الضخمة.. ويحدثنا عن منافع الحديد العسكرية والمدنية في سورة خاصة تحمل اسم (الحديد).

كما نجد رسول الإسلام يقر نتائج الملاحظة والتجربة في شئون الحياة، وإن خالفت رأيه الشخصي، كما في مسألة تأبير النخل، وهي التي قال فيها: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (١).

ونجده لذلك يستخدم الإحصاء لمعرفة القوة البشرية المسلمة معه معرفة دقيقة

---

(١) رواه مسلم من حديث أنس من كتاب الفضائل (٢٣٦٣/ ١٤١).

قائمة على التعداد لا على التقريب والتخمين، وهذا ما رواه البخاري ومسلم.

ونجده يحارب الأمية ـ وهو النبي الأمي ـ حتى إنه ليفدي الأسير المشرك الكاتب إذا علم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

ونجده يحارب الخرافات ومروجيها فيعلن حربًا على السحرة والكهنة والعرافين، وعلى من يصدقهم أو يسمع لهم، ويتداوى ويأمر بالتداوي قائلاً: «تداووا يا عباد الله فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء»[1].

ونجده يقاوم الجبرية والسلبية في مواجهة الأمور، داعيًا إلى العمل الحذر، واتخاذ الأسباب: «اعقلها وتوكل»[2]، ولما سئل عن الأسباب: هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله»[3].

فلا عجب أن قامت في ظل هذا الدين دول مترامية الأطراف ورثت أعظم إمبراطوريتين في الأرض، أسسها أصحاب رسول الله ﷺ على أمتن الأسس وأقوى الدعائم، الجامعة بين الدين والدنيا، وترعرعت تحت سلطانه حضارة شامخة البنيان، عالية الأركان، استفادت من تراث السابقين، وهذبت منه، وحسنت فيه، وأضافت إليه من جهدها وابتكارها، ولم تجد في الدين ما يعوق سيرها، أو يؤخر تقدمها، بل وجدت فيه الدافع الذي يحفزها أن تضاعف السعي والحركة، والضمان الذي يمسكها أن تضل أو تنحرف عن الطريق، ولاغرو أن قال الفيلسوف المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون: إن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين!

ترى هل نحن ـ بعد ذلك ـ في حاجة إلى أن نسأل: ما موقف الإسلام من الحضارة أو التطور؟ أو العلم والتقدم؟

---

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث أسامة بن شريك ٤/ ٢٧٨، وأبو داود في كتاب الطب (٣٨٥٥)، والترمذي في الطب (٢٠٣٨) وقال: وفي الباب عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي خزامة عن أبيه وابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك في كتاب صفة القيامة (٢٥١٧) وقال: وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا.

(٣) رواه الترمذي من حديث أبي خزامة عن أبيه في كتاب الطب (٢٠٦٥)، وقال: حسن صحيح، وفي كتاب القدر (٢١٤٨)، وقال: لا نعرفه إلا من حديث الزهري، وقد روي غير واحد هذا عن سفيان عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه، وهذا أصح، وابن ماجه في الطب (٣٤٣٧).

كافحوا الأميّة

إن من المحزن المؤسف أن تكون نسبة (الأمية) في بلاد المسلمين تقارب الثمانين بالمائة ٨٠٪، وأن يوضع العالم الإسلامي كله في دائرة البلاد النامية، وهو تعبير مهذب عن البلاد المتخلفة! أو ما يسمونه (العالم الثالث)، بل هناك بعض الأقطار ربما تهبط لتكون وحدها (عالمًا رابعًا)!

وإن من أكبر العار على المسلمين أن يظلوا على حالهم تلك من الأمية والتخلف، ودينهم أعظم حافز على التعلم والتقدم، وهو يهيئ لهم من الأسباب المادية والاجتماعية، ومن المناخ العقلي والنفسي ما يخرجهم من الجهل إلى العلم، ومن البداوة إلى الحضارة، ومن الظلمات إلى النور.

لقد كان الإسلام ـ فيما نعلم ـ أول دين أعلن الحرب على الجهل والأمية، ودعا إلى التعلم، ورفع مكانة العلم وأهله.

وحسبنا أن الرسول ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١).

وحسبنا أن أول آيات نزلت من القرآن على قلب النبي الكريم كانت إشادة بفضل القراءة والقلم، والعلم والتعليم بالقلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٢).

وكانت السورة الثانية في تاريخ نزول القرآن هي سورة (القلم)، وإنما سميت بذلك، لأن الله أقسم فيها بالقلم وما يسطره به الكاتبون من علم وحكمة، قال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(٣)، وأول ما يُسطر به هو القرآن الكريم الذي سماه الله (الكتاب) إيماء إلى هذا المعنى.

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره عن أنس، ولم يرد في نص الحديث «ومسلمة»؛ لأن المقصود: على كل إنسان مسلم ذكرًا أو أنثى، بإجماع العلماء، وصححه الحافظ السيوطي وغيره، كما صححه العلامة الألباني في تخريج أحاديث كتابنا: (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام؟) ط. المكتب الإسلامي.

(٢) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥.

(٣) سورة القلم. الآية ١.

وقد جرت سنة الله في القرآن: أنه يقسم بالشيء، تنبيهًا على عظيم منفعته، ولفتًا لأنظار الخلق إليه، وأي شيء أعظم نفعًا من (القلم) مذيع العلم ومثبته، وناقله إلى الأجيال، وهل المطبعة في عصرنا إلا (قلم تطور) فإذا هو يملأ الدنيا علومًا ومعارف، وثقافة وحضارة؟

إن تمجيد القلم في القرآن وإقسام الله به حث للمسلمين على أن يحسنوا الكتابة به، وبخاصة أن الإسلام يأمر المسلم بالكتابة في عدة أمور:

منها: كتابة الدين: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ (١).

ومنها: كتابة الوصية كما في الحديث: «حق على كل امرئ مسلم لا يبيت إلا ووصيته مكتوبة عنده» كما جاء في حديث البخاري وغيره (٢).

كما روى عن النبي ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي» (٣).

ومن عجب أن النبي الأمي الذي لم يكن يتلو من كتاب، ولا يخطه بيمينه حتى لا يرتاب المبطلون، لم يقتصر على الحث النظري والترغيب في تعلم القراءة والكتابة، بل جاهد عليه السلام أن يدبر الوسائل العملية لنشر التعليم، ومحاربة الأمية ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ومن هذه الوسائل الرائعة انتهازه فرصة وقوع عدد من أسرى قريش المشركين في غزوة بدر في أيدي المسلمين، وكانوا يحسنون الكتابة، ولا يملكون مالاً ليفدوا أنفسهم، فاشترط النبي ﷺ لفدائهم أن يُعلِّم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة (٤). فكان هذا أول مشروع ينظمه رئيس الدولة لإعلان الحرب

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٢) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر في كتاب الوصايا (٢٧٣٨)، والنسائي في الكبرى في الوصايا (٦٤٤٢/٥).

(٣) رواه ابن حبان عن عائشة في كتاب الضعفاء.

(٤) أحمد ١/٢٤٧، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح ٤/٤٧ (٢٢١٦).

على الأمية في تاريخ هذه الأمة، بل لعله في تاريخ البشرية كلها، وكان من الذين استفادوا من هذا المشروع من أبناء الأنصار: الفتى العبقري زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن بعد ذلك، والذي كلفه الرسول الكريم تعلم لغة (يهود) حتى يقرأ له رسائلهم إليه ﷺ، ويكتب له رسائله إليهم.

وحين انتشر العلم في أوساط المسلمين، اتجه الرسول ﷺ إلى فرض التكافل بين المسلمين في هذا الجانب، كما فرضه في الجانب المادي المعيشي، فالعالم عليه أن يعلم الجاهل، والقارئ عليه أن ينور الأمي ويأخذ بيده.

روى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه عن جده، قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً، ثم قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة».

ثم نزل رسول الله ﷺ فقال قوم: من ترونه عني بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قومًا بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال: «ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا»، فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضًا، فقالوا: أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة ليفقهونهم ويعلمونهم ويفطنونهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

(١) الآيتان ٧٨، ٧٩ من سورة المائدة، والحديث لا بأس بإسناده، ومُوثِّقو بكير بن معروف أكثر من مجرحيه، وانظر تعليقنا على الحديث رقم (٨٢) من (المنتقى) من الترغيب والترهيب. ط. دار الوفاء.

ويعلق الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله على هذا الحديث فيقول :
وإنك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها :

١ـ فالرسول عليه السلام لم يقر قومًا على الجهالة بجانب قوم متعلمين .

٢ـ واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم ، وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصيانًا لأوامر الله وشريعته .

٣ـ واعتبر ذلك أيضًا (عدوانًا) و (منكرًا) يوجبان اللعنة والعذاب .

٤ـ أعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعلم والتعليم .

٥ـ وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم .

٦ـ ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء ، فإن الرسول ﷺ أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة ، لا بخصوص الأشعريين وحدهم ، بدليل أن الأشعريين لما جاءوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس ، لم يقل لهم أنتم المرادون بذلك ، بل أعاد القول العام الذي سلف ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين إشعاراً بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين .

وبذلك يكون الرسول ﷺ قد أعلن مكافحة الأمية قبل أن تعلنه الدول المتحضرة في عصرنا هذا بأربعة عشر قرنًا ، وإن هذا لعجيب أن يصدر من نبي أمي في بيئة أمية لولا أنه رسول الله ﷺ .

فهـرس الكتاب

رقم الإيداع ٢٢٥٩ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0687 - 5

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)